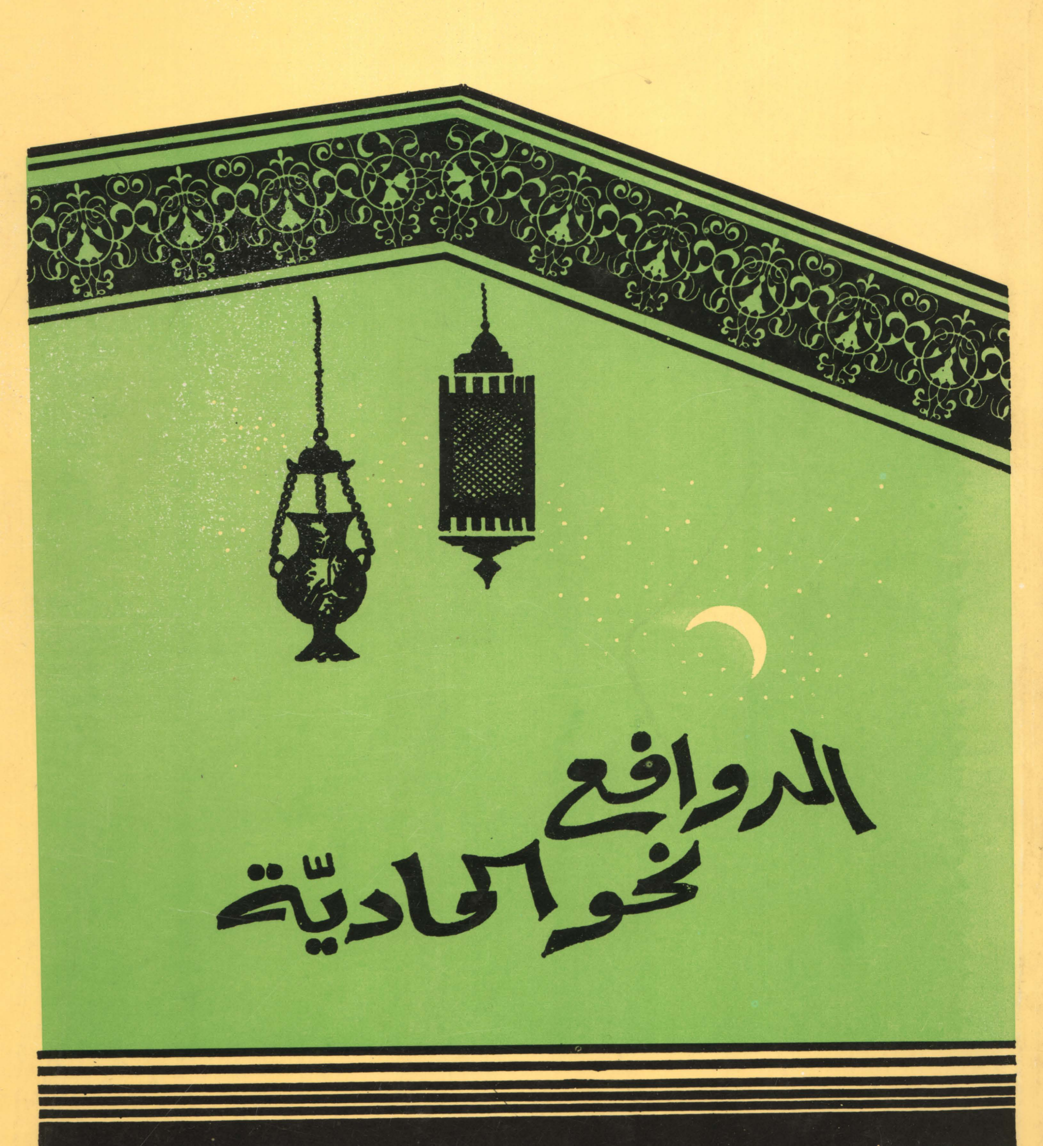
مرتضى المطهري



دار التعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

مرتضى المطهري



ترجمة

محمد علي التسخيري

دار التعارف للمطبوعات

الطبعة الأولى
١٩٩٤م ـ ١٤١٤هـ

دار التعارف للمطبوعات

المكتب : شارع سوريا ـ بناية درويش ـ الطابق الثالث
الإدارة والمعرض : حارة حريك ـ المنشية ـ شارع دكاش ـ بناية الحسنين
تلفون : ٨٣٧٨٥٧ ـ ٨٢٣٦٨٥
صندوق البريد : ٨٦٠١ - ١١ / ٦٤٣ - ١١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم :

هدير الباطل يملأ الاجواء ، واضواؤه تبهر العيون فتجليها وتسلبها رشدها ... فنسمع في كل آن نغمة ، ومع كل فترة نداء يدعو الناس الى الباطل باسم الحقيقة الناصعة ! وباسم العلم والبحث العلمي ! وباسم التقدمية ! وباسم الثورة ... الى آخر القائمة الطويلة من الشعارات البراقة .

وخدع الجيل الغافي وبهر . وظن أن آماله ورؤاه قد تحققت من خلال هذا النداء : نداء الحرية ... وان عليه الآن ان ينتفض وينفض عنه غبار الماضي والقيود والتخلف الفكري والحضاري ، والصور الهزيلة التي كونها عن الواقع الموضوعي .

ومن هنا بدأت عملية الصيد تنجح ... وحقق الباطل اهدافه من خلال شعارات طرحها في الساحة ... وبدأنا نشهد على ارضنا الاسلامية ارتالا من الشباب الضائع يلتهم الفكر المادي التهاما ليسد جوعته ويشبع نهمه .

ونجحت المؤامرة ... التي خطط لها الاستعمار بدقة وخبث ماكرين ...

ذلك ان الاستعمار بعد ان تحرك في اعماقه وحشه الكاسر طالبا منه ان يحمل ما اسماه هو بعد ذلك برسالة الرجل الابيض فيغزو البلدان الفقيرة الغنية ليؤمن لنفسه المواد الخام التي تتوفر عليها البلدان الضعيفة من جهة ويحتكر لنفسه اسواقها من جهة اخرى ... فراح يهاجم هذه المناطق ومنها المنطقة الاسلامية ... هذا الاستعمار واجه حقيقة كبرى لم تكن تخطر له ببال .. وتلكم هي حقيقة البصيص المتبقي من العقيدة الاسلامية في خلد الامة وعواطفها . فان ذلك البصيص المتبقي ـ رغم ضآلته ـ كان كافيا الى حد ما في تجميع شمل الامة على مقاومة الاستعمار المهاجم ورد كيده الى نحره ... وكانت المقاومة العنيفة جدا !

فماذا يفعل المستعمر وهو يواجه هذه الظاهرة ؟ انه لا ريب سيتجه الى ضرب هذا البصيص منبعا وآثارا .. وهكذا كان الامر ... وبدأت خيوط المؤامرة تحاك ... على ضوء الصراع الذي دار في الغرب بين الدين المزيف الذي دعت اليه الكنيسة واولئك الذين تعشقوا العلم وبهرتهم نتائجه فتجاوزوا في تقديسه حدوده الواقعية ، وصنعوا منه مقياسا للمعرفة بكل مجالاتها وانكروا اي دور لاي شيء آخر حتى ولو كان ذلك الشيء العقل ! نعم العقل الذي به يتم العلم ويتميز الانسان العالم عن الحيوان الجاهل .

هذا الصراع كان يجد مبرراته في تلك الساحة على ضوء الظروف القائمة ، وظلم الكنيسة وتحرضاتها ، وتفسية الانسان الاوربي المتعشقة ـ منذ القدم ـ للمادة والتي لم تقبل حتى المسيحية حتى صبغتها بروحها الوثنية وخلقت توأما بين الاله المجرد المطلق والانسان المحدود المادي متمثلا في « ابن الله » المزعوم .

في حين لم تكن هناك اي مبررات له في الارض الاسلامية اذا نظرنا له من الزاوية النظرية الاسلامية وغضضنا النظر عن التطبيق المنحرف للاسلام بل وحتى لو لاحظنا ذلك التطبيق المنحرف فسوف لن نجد ــ الا نادرا ــ ما يدعو للصراع بين الدين من جهة والعلم والحرية والثورة والتقدمية ــ بمفاهيمها الحقيقية الموضوعية ــ من جهة اخرى ... هذا اضافة للغطاء الفكري العميق الذي كان يوفره العلماء الاسلاميون في مختلف المجالات لاي مشكلة .

الا ان الاستعمار عمل ــ كما سبق ــ على نقله بكل ثقله الى عالمنا الاسلامي وذلك باساليب كثيرة لا يهمنا هنا الاشارة اليها فهي واضحة لدى الجميع وكان من اهمها هؤلاء الذي جاءوا يدرسون التاريخ الاسلامي من المستشرقين ليزيفوا صورته واولئك الذين تشبعوا بذلك الصراع من ابناء الشرق الحيارى فراحوا يبحثون في مجتمعهم عن مبررات له ... ويخلقون الموجة الالحادية عاملين ــ بشعور او لا شعور ــ على خلق الصراع واذكائه ، ممررين من خلال ذلك اهداف الاستعمار .

وكانت النتيجة ... ما نشاهده من حلقات مهولة مفزعة وامراض اجتماعية كبرى هي نتيجة طبيعية جدا لترك السبيل القويم والسير في خط الضلال .

« وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ » ـ (٣١) .

وهنا تفتت وحدة الامة ــ الى حد ما ــ بعد ان فقدت مبررها وهو العقيدة من جهة كبلتها قيود (الحدود والوطنية والقومية والحزبية الضيقة والولاءات المتعددة وغير ذلك) من جهة اخرى .

ونجحت المؤامرة !

الا انها اخطأت في حسابها مرة اخرى اذ ظنت ان وجودها الجـاثم على قلب الشعوب الضعيفة ـ في نظرها ـ سيستمر !! فقد خلقت بهـذا التحدي موجة وعي عارمـة ودمغت علماء الامة كي يقوموا بواجبهـم الحضاري تجاهها •• واجب الصيانة وتوضيح الحقيقة وتزييف الغشاوات التي يحوكها القصور والظلم البشري مغطيا بها وجه الفطرة الاصيلة •

وولد هذا البحث وامثاله لينير الطريق ويضع النقاط على الحروف •• ويوضح الحقيقة التي خلقت كل هذا الضجيج •

المؤلف في سطور

لم نستطع اعطاء صورة كاملة عن سماحة استاذ المؤلف واكتفينا باعطاء هذه السطور عن حياته اللامعة •

انه المفكر الاسلامي الكبير الشيخ مرتضى المطهري نجل العلامة الحجة المرحوم الشيخ محمد حسين المطهري •

ولد عام ١٣٣٨ هجرية قمرية في بلدة فريمان من توابع مدنية «مشهد» المقدسة حيث مدفن الامام الرضا (ع) • وفي هذه المدينة درس على يد والده العلوم الدينية ما بين عام ١٣٥٢ ـ وعام ١٣٥٤ هـ•ق •

وفي رمضان سنة ١٣٥٦ هاجر الى مدينة « قم » واشتغل بدراسة العلوم الدينية في جامعتها العلمية وخصوصا الفقه والاصول والفلسفة والمنطق وكان في الاثناء يدرّس هذه العلوم ايضا •

وبعد انتهاء هذه الفترة هاجر في شوال ١٣٧١ الى طهران واقام فيها لحد الآن • وفي طهران قام «سنة ١٣٧٤» بتدريس المنطق والفلسفةوالفقه في كلية الالهيات في جامعة طهران وكان في خلال دورتين من فترة تدريسه رئيسا لقسم الفلسفة فيها • كما انه اشتغل خلال الفترة ما بين ١٣٧٤ ـ ١٣٨٨ بالتدريس المتواصل للفلسفة والفقه ـ احيانا ـ في مدرسة « مروي » العلمية وهو الآن يقوم ـ بالاضافة لعمله في الجامعة ـ

بتدريس الفلسفة وفلسفة التاريخ وبعض البحوث الاخرى لمجموعة من اساتذة الفلسفة في جامعة طهرآن .. كما آنه يدرس فعلا في الجامعة العلمية الدينية في قم المقدسة خمس ساعات اسبوعيا .

ويمتاز استاذنا الجليل بانه يمتلك اراء دقيقة في مختلف العلوم النظرية الاسلامية وله منذ ما يقرب من عشر سنوات بحث تفسيري منظم. ويدل على تبحره في العلم ما قامت الجامعة في طهران بتكثيره وتوزيعه من دروسه فيها تحت عنوان « كليات الفقه » « كليات الاصول » «كليات الفلسفة» « كليات المنطق » « كليات الكلام » « كليات العرفان » .

وهو فوق كل هذا خطيب بارع ومحاضر عميق وقد كانت احاديثه تذاع من راديو طهران الى سنة ١٣٨٢ .

واول اثر علمي طبع له كان بشكل تعاليق على كتاب « اصول الفلسفة » للعلامة الحجة الطباطبائي وقد طبع منه لحد الآن مجلدات اربعة .

واذا تجاوزنا المقالات الكثيرة التي طبعت في سلاسل ونشرات مختلفة ، والكتيبات الصغيرة المطبوعة المتضمنة لاحاديثه المختلفة وكذلك « مجموعة المقالات » التي طبعت بدون اذنه ، اذا تجاوزنا كل هذا فانا يمكن ان نذكر مؤلفاته على النحو التالي :

١ ــ تعاليق اصول الفلسفة والمذهب الواقعي في خمسة مجلدات طبع منها لحد الآن اربعة .
٢ ــ قصص المخلصين في جزءين .
٣ ــ الانسان والمصير .
٤ ــ مسألة الحجاب .

٥ ــ العدل الآلهي ٠
٦ ــ الدوافع نحو المادية ٠
٧ ــ الجذب والدفع في شخصية الامام علي (ع) ٠
٨ ــ الخدمات المتقابلة بين الاسلام وايران في مجلدين ٠
٩ ــ نظام حقوق المرأة في الاسلام ٠
١٠ ــ سير في نهج البلاغة ٠
١١ ــ الامدادات الغيبية في حياة الانسان (مجموع خمس مقالات)
١٢ ــ عشرون حديثا ٠
١٣ ــ نهضة الامام المهدي (ع) ٠
١٤ ــ ختم النبوة ٠
١٥ ــ النبي الامي ٠
١٦ ــ انماط الولاء وانواع الولاية ٠
١٧ ــ الاخلاق الجنسية من وجهة نظر الاسلام ٠
١٨ ــ تصحيح وكتابة حواشي كتاب التحصيل لبهمينار بن مرزبان٠
١٩ ــ كليات العلوم الاسلامية في ٦ مجلدات (في الفلسفةوالاصول والمنطق والكلام والعرفان) ٠

وها نحن نقدم للقراء الاعزاء احد هذه البحوث الثرة ــ من خلال طبعته الثانية ــ آملين ان يوفقنا تعالى لتقديم باقي البحوث للقراء العرب في اقرب فرصة ممكنة ٠

والله الموفق للصواب ٠

محمد علي التسخيري
قم في ٨ ج٢ ١٣٩٧

مقدمة المؤلف

هذه الرسالة هي حصيلة محاضرتين القيتا في قاعة المعهد العالي سنتي ١٩٦٨ و ١٩٦٩ بناء على دعوة الجمعية الاسلامية لطلاب المعهد العالي ـ في طهران ـ وكانتا تحت عنوان (الدوافع نحو الأتجاه المادي)٠

وقد ابدى الطلاب الاعزة رغبتهم في طبع هاتين المحاضرتين ولذا فقد نقلوها من جهاز التسجيل وأوصلوا المسودات الي كي أقوم بتعديل بعض العبارات ٠٠ وقد قنعت اول الامر بمثل هذا التعديل اللفظي ٠٠ ولكن عدلت عن الاكتفاء به ـ بعد ان كانت الرسالة معدة للطبع فصممت على شيء من التفصيل والتوضيح واضافة بعض المواضيع ٠٠ وقد بلغ الامر في هذا ان كان التوضيح والتفصيل بمقدار ثلاثة اضعاف الاصل ليتحول من كراسة الى كتاب ٠

وموضوع بحثنا يمثل جانبا من تاريخ العقائد والافكار البشرية ومن المعلوم ان تحليل الوقائع التاريخية صعب الى حد ما لانها ترتبط بعوامل معقدة وخصوصا اذا كان البحث يرتبط بالتطورات العقائدية البشرية ٠

ولست ادعي هنا ان بحثي في هذه الرسالة جامع مانع ـ كما يصطلح ـ ولكن آمل ان يكون قد فتح طريقا الى الغرض ، وقد فصلت في بعض

الاقسام واختصرت في البعض الآخر الا ان كل الفصول قابلة للتوسع .

اما ما هو المدى الذي توفق اليه هذه الرسالة او لا توفق ـ واذا وفقت فهي تفصل مطالبها ام لا ـ فان ذلك يرتبط بمقدار ما تؤديه هذه الرسالة من خدمة وما تحصل عليه من موقـع وما يمكن ان تؤيد به في مجال هدفها المنشود .

مرتضى المطهري
(المشهد) ـ ٦ج٢ ١٣٩١ هـ

المادية

لما كنا نبحث عن الـدوافع نحو الاتجاه المـادي فمن الطبيعي ان نتعرف على موضوع بحثنا (المادية) مـن حيث المدلول الاصطلاحـي المتداول فعلا ، وما هي حدودها ثم نرد البحث .

ولفظ (المادية) له استعمالات مختلـفة لا يمكن ان تكون كلهـا موضوع بحثنا هذا ، فمثلا قد تطلق المادية ويراد بها مذهب « اصالـة المادة » بمعنى الاعتقاد بالواقع الموضوعي الخارجي لها في قبال النظر اليها كأمر فرضي ذهني عرضي من قبل (المثالية) التي تنكر ان يكون للمـادة واقع خارجي وتعتبرها من مخترعات الذهن .

ووفق هذا المصطلح يعتبر الالهيون ـ مسلمين كانوا او غير مسلمين ـ ماديين ، اذ كلهم يؤمنون بان للمادة واقعا موضوعيا محددا بزمـان ومكان وانها حقيقة متطورة متكاملة محسوسة عينية غير ذهنية وذات آثار معينة ، وكون النظرة مادية بهذا المعنى لا ينافي الاعتقاد بالله والتوحيد بل يكون عالم الطبيعة بما انه (وحدة عمل ووحدة منسقة مصنوعة) افضل سبيل لمعرفته تعالى اذ تتكشف ارادته الحكيمة من خلال ملاحظة التطورات المادية الدقيقة ، وهذا القرآن الكريم بنفسه يعتبر هذه الحوادث الماديـة آيات باهرة تقود للتعرف على الله تعالى .

وقد تستعمل هذه الكلمة (المادية) ويراد بها انكار الوجود اللامادي

وحصر الوجود في العالم المادي ، والقول بان لا وجود في الكون الا وهو محكوم بقوانين المادة وواقع في اطار الزمان والمكان والحس البشري ، وان ما عدا ذلك وهم محض .

وما نبحث عنه في هذا الكتاب هو معرفة الدوافع نحو هذا الاتجاه (الحصري) وكيف توفرت العوامل التي دفعت بالبعض من افراد الانسانية لان يؤيدوا هذا الاتجاه فينفوا ما وراء الطبيعة وكل وجـود لا مادي ، وينكروا الله بالتالي ، ويعتبروا كل ما وراء المادة عدما محضا .

الجذور التاريخية للفكرة :

ليست هذه الفكرة شيئا جديدا ، ولا معنى لتصوره احـدى نتائج التطور العلمي الحديث ، وانه وجد في القرنين الاخيرين ــ مثلا ــ كباقي النظريات العلمية التي لم تكن معروفة من قبل ثم توصلت البشريـة الى مضمونها اخيرا . كلا ! فالاتجاه المادي لا يختص بالقرون الاخيرة ــ قطعا بل يعتبر من الافكار القديمة جدا اذ نلاحظ في الفلسفة ان الكثـير من فلاسفة اليونان القدماء قبل عصر سقراط ونهضته الفلسفية كانـوا ماديين منكرين لما وراء المادة .

كما اننا نجد ان البعض مـن افراد العصر الجـاهلي المقارن لعصر البعثة كانوا يعتقدون بذلك ولذا دخل القرآن معهـم في صراع عنيف ، ونقل كلامهم :

« وَقَالُوا مَا هِيَ الاَّ حَيَاتُنَا الدُّنيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا الاَّ الدَّهرُ » وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ انْ هُمْ الاَّ يَظُنُّونَ ٤٥ ـ ٢٥ .

وتكشف عبارتهم عن انكار الله والمعاد معا .

المادية في العصور الاسلامية :

ولورود كلمة (الدهر) في الآية الكريمة فقد اطلق على مفكري الله تعالى اسم (الدهريين) ، ونواجـه الكثيرين من الافراد الـذين كانوا دهريين وماديين في طول التاريخ الاسلامي وخصوصا في العصر العباسي الذي نفذت وتسللت المذاهب الفلسفية والاساليب المختلفة فيـه الـى المجتمع الاسلامي . وقد استغل عدة من هؤلاء الحرية الفكرية في المجالات العلمية والفلسفية والدينية (طبعا الى الحد الـذي لا يتنافى وسياسة العباسيين) فاعلنوا معتقداتهم وعرفوا بمسلكهم المادي وبدأوا يجادلـون الالهيين ، ويتباحثـون معهم ، ويعرضون أدلتهم ويشكلون على أدلـة الموحدين ، فيسمعون ويسمعون بكل حرية .. وهذا التاريخ الاسلامي حافل باخبارهم .

وقد كان بعض هؤلاء يعقدون جلساتهم في مسجد النبي (ص) وذلك في ايام الامام الصادق (ع) ـ ويتحدثون في مسائلهم وما كتاب « توحيد المفضل بن عمرو » الا نتاجا لمواجهة عقائدية معهم .

يقول المفضل بن عمرو وهو أحد اصحاب الامام الصادق (ع) :

« كنت ذات يوم بعد العصر جالسا
في الروضة بين القبر والمنبر . وانا مفكر فيما
خص الله به سيدنا محمدا (ص) من الشرف
والفضائل ، وما منحه وأعطـاه وشرّفه به

وحباه مما لا يعرفه الجمهور من الامة وما جهلوه من فضله وعظيم منزلته وخطر مرتبته فاني لكذلك اذ اقبل ابن ابي العوجاء فجلس بحيث اسمع كلامه فلما استقر به المجلس اذا رجل من اصحابه قد جاء فجلس اليه فتكلم ابن ابي العوجاء فقال : لقد بلغ صاحب هذا القبر العز بكماله ، وحاز الشرف بجميع خصاله ، ونال الحظوة في كل احواله ، فقال له صاحبه : انه كان فيلسوفا ادعى المرتبة العظمى والمنزلة الكبرى واتى على ذلك بمعجزات بهرت العقول ، وضلت فيها الاحلام ، وغاصت الالباب على طلب علمها ... فقال ابن ابي العوجاء : دع ذكر محمد (ص) فقد تحير فيه عقلي ، وضل في امره فكري ، وحدثنا في ذكر الاصل الذي يمشي به ، ولا صانع له ولا مدبر ، بل الاشياء تتكون من ذاتها بلا مدبر ، وعلى هذا كانت الدنيا لم تزل ولا تزال » .

وهنا يتألم المفضل الما شديدا ويواجههم باعنف القول ثم يلجأ للامام الصادق (ع) يحدثه بما جرى فيسكن الامام خاطره ويعده بتلقينه علوما وبدائع للصنعة يستطيع معها ان يواجه كلام الملحدين ثم يبدأ بالقاء احاديث مفصلة في جلسات مطولة فيكتبها المفضل مما اوجد لنا كتاب « توحيد المفضل » [1] .

---

(١) بحار الانوار ج٣ ــ الطبعة الجديدة من ص ٥٧ ــ ص ١٩٦ .

فطرة الانسان اهي موحدة ام مادية ؟

اننا اذ طرحنا بحثنا في هذا الكتاب ، على اساس التساؤل عن الدوافع نحو الاتجاه المادي فذلك يعني اننا تتصور ان الطبيعة الانسانية طبيعة موحدة وان الاصل فيها هو التوحيد وعدم توفر هذا الانحراف ، ولانها ـ اي المادية ـ خلاف الطبع والقاعدة تساءلنا عن علة هذه الحالة.

وبعبارة اخرى: فان الاعتقاد بالله تعالى يمثل صحة الانسان وسلامته في حين يمثل الاتجاه المادي الحالة المرضية المنحرفة عن الصحة والطبيعي في كل تساؤل هو البحث عن علل الانحراف والمرض دون البحث عن علل السلامة لانها توافق السير الطبيعي لنظام الخلقة .

وهذا الذي نقوله يخالف تماما النظريات المطروحة فيما يسمى بعلم « تاريخ الاديان » اذ يبحث الباحثون فيه عن علل الاتجاه الديني في حين اننا لا نرى مجالا للتساؤل عن ذلك بعد ان نعلم انه الامر الذي تدفع الفطرة الانسانية نحوه ، وانما ينبغي البحث عن سر الاتجاه اللاديني عند بعض الناس .

ولسنا نحاول ـ هنا ـ ان نبحث في تفاصيل هذا الجانب واثبات ان الاتجاه الديني اصيل في حياة الانسان في حين يكون الاتجاه المادي امرا غير طبيعي ، فذلك لا مجال له هنا ولا يرتبط به موضوعنا الاصلي .
على انه يجب الالتفات الى اننا حينما ندعي فطرية الدين فاننا لا

ندعي ان الدين عندما يطرح على الصعيد الفلسفي والعلمي فسوف لـن يوجد اي تساؤل حوله ، كلا فاننا لا نقصد ذلك فان هذه المسألة ـ مثلها في ذلك مثل اي مسألة اخرى ـ وان كانت تؤيدها الغريزة الفطريـة الا انها عندما تطرح فكريا تتواجد بعض الاشكالات والشكوك والشبهات للمبتدئين فيرد عليها بحلول رائعة بنفس المستوى •

وعلى هذا فلسنا نريد ان نعرض عن الشكوك الحاصلة لبعض الافراد ـ واقعا ـ او نعتبرها ناشئة من سوء سريرتهم بل اننا نعتبر حـدوث بعض الشبهات والشكوك في هذا المجال وعندما يحاول الانسان التعرف على صورة اكثر تفصيلا في هذه المسائل ، نعتبره امرا طبيعي الحصول ؛ وتكون هذه الشكوك دافعا للتحقيق والدقة والبحث العميق ولـذا فنحن نقدس مثل هذه التشكيكات البناءة الباحثة عن الحقيقة لانها مقدمـة اليقين والاطمئنان • وانما يذم الشك عندما يتحول الى (وسواس) مهدم يشغل الانسان فكرا وعملا وذلك كما نرى بعض الافراد الذين امتهنـوا مهنة التشكيك لا لشيء الا للتشكيك ، فهم يلتفون لهذه القدرة ويرون تكاملهم الفكري تاما بوصولهم الى مرحلة التردد والتشكيك ، واذا كان الشك الاول مقدمة للكمال فالشك الثاني مقدمة للانحطاط • ومن هنـا نقول ان الشك منعطف ومعبر رائع لكنه منزل ومقام سيء •

وهذا البحث يوجه الى افرادا وجماعات اعتبرت الشك آخر مراحل سيرها وملجأها الاخير ، والمادية ـ كما نعتقد ـ وان ادعت لنفسها انهـا مذهب قاطع جازم وان للمعرفة قيمتها الحقيقية عندها الا انها في الواقـع من مذاهب الشك •• وهذا هو بالضبط ما يقوله القرآن في هـذا الصدد فتقول الآية الكريمة :

«وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ٥٣ـ٢٨ .

المادية في القرون الاخيرة :

من الواضح ان المادية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تحولت الى مدرسة فكرية بعد ان لم تكن كذلك اما ما نراه من نسبة المادية الى بعض المدارس اليونانية فلا نرى لذلك مبررا وذلك ان اغلب مؤرخي الفلسفة لم يكونوا فلاسفة ولم يفرقوا بين المدرسة الفكرية والتمايل نحو مضمون الفكرة فما ان تلوح لهم بعض الكلمات من بعض الفلاسفة حول القدم الزماني للمادة او ما هو من هذا القبيل حتى يتصوروا ان لازم ذلك انكار الله وانكار عالم ما وراء الطبيعة . ومن هنا نقول انه لم يثبت ـ بنظرنا ـ انه كانت هناك مدرسة فكرية مادية وانما كل ما كان هو تمايلات فردية نحو المادية .

وهذا بعينه هو ما الذي اوجد احتمال ان يكون حصول المادية بشكل مدرسة مرتبطا بشكل مباشر مع العلم والتقدم العلمي .

ومن الطبيعي ان يسعى الماديون لان يؤكدوا هذا الترابط كي يذعن الآخرون بان علة نضج المادية ورواجها في القرن الثامن عشر والتاسععشر هو ظهور النظريات العلمية وتوسع الفكر التجريبي مما جر البشرية للايمان بالمادية !!

هذا الكلام في الواقع اقرب الى الهزل منه الى الجد ، فالتمايل نحو المادية كان في العصور القديمة سواء بين الطبقات المثقفة

او الجاهلة ، والامر كذلك في العصر الحاضر فكما اننا نجد بين تمام الطبقات افرادا ماديين نجد ايضا ــ على مختلف المستويات وخصوصا في طبقة العلماء ــ اتجاهات معنوية الهية تؤمن بما وراء الطبيعة .

ولو صح هذا الذي يدعيه الماديون وجب ان نجد الانحراف نحو المادية موازيا لسير التطور العلمي ووجود العلماء الكبار في العالم ، وان تكون الاتجاهات المادية في الطبقة العلمية اكثر من غيرها وان يكون التقدم العلمي عند اي فرد ملازما لتقريبه من المادية ! مع ان الواقع يكذب ذلك تماما . فاننا كما نلاحظ اليوم افرادا معروفين مثل (برتراند راسل) الذي يعد نفسه الى حد بعيد ماديا ويقول « ان البشرية وليدة عوامل لم توجد وفق تدبير مسبق ، او غاية مقصودة فاصل الانسان هو النمو والتطور وحتى عواطفه مثل الامل والخوف والحب والعقيدة فانها ليست الا مظهرا من مظاهر التلاقي العشوائي للذرات المختلفة » [1] .

وبهذا ينكر (راسل) وجود القوة ــ العاقلة المدبرة الحاكمة للكون ، وان كان يصف نفسه احيانا بانه من الشكاك واللاادارين ، في نفس الوقت الذي نشاهد فيه امثال راسل نشاهد انشتاين نابغة العلم في القرن العشرين يقف في الطرف المقابل لنظرة راسل فيقول « في عالم المجهول توجد قوة عاقلة قادرة يكون هذا العالم شاهدا على وجودها » [2] .

فهل من الممكن ان يقال : ان راسل كان مطلعا على المفاهيم العلمية في حين لم يكن انشتاين بهذا المستوى ؟! او ان نقول ان الفيلسوف الفلاني

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم « الطبعة الثالثة ص ٩٩ كما ينقله ايرونيك » ويليم بنلوج .

(٢) كتاب الله يتجلى في عصر العلم الطبعة السادسة ص ٧٦ كما ينقله مادلين بوكس كريدر .

في القرن الثامن عشر او التاسع عشر كان مطلعا على المفاهيم العلميـة في عصره في حين كان باستور المتدين الموحد جاهلا بذلك ؟!

وهل يمكن ان يقال ان ويليم جيمس الرجل الموحد بل العـارف المتعبد في عصره او بركسون او الكسيس كارل وامثالهم لم يكونوا مطلعين على مفاهيم عصرهم العلمية بل كانوا يفكرون بعقلية ما قبل الف عام في حين ان البعض الذي لم يكن يملك معشار ما يملك هؤلاء الافـذاذ من معلومات ، ولم يعتقد بالله .. نقول عنه انه كان الاكثر اطلاعـا عـلى النظريات الحديثة .

اننا نشاهد احيانا عالمين رياضيين احدهما يعتقد بالله والدين والثاني مادي ، وهكذا قد يرى عالمان فيزياويان او عالمان من علماء الاحياءاحدهما مادي والآخر ذو فكر الهي . اذن لا يمكن المجازفة والقـاء القول على عواهنه وادعاء ان العلم بتقدمه قد نسخ الايمان بعالم ما وراء الطبيعـة بل ان هذا يعد من كلام الطفولة التي لا تعي ما تقول !

وانما يليق بنا ان نبحث ــ بدقة ــ عن العامل الذي اخرج الماديـة في اوربا ومهد لان تتحول الى مدرسة فكرية لها اتباع كثيرون ... هذا وان كان القرن العشرين قد حد كثيرا من تقدم المادية ، بل يمكن القـول بانه الحق بها نوعا من الهزيمة . اننا نرى ان هذه الاتجاهات المادية العامة لها سلسلة من العوامل التاريخية والاجتماعية التي تحتاج الى استعراض شامل نكتفي منه بما يلي مدركين اننا لم نعرفها جميعا وان هناك مجـالا للبحث بصورة اوسع فيها ، وقد عثرنا على علل ذكرناها ، ونحتمـل ان يعرف الذين لهم معلومات اكبر في المستويات الاجتماعية وخصوصا فـي تاريخ اوربا ، ان يعرفوا عللا اخرى وهذا ما توصلنا اليه في هذا المجال :

قصور المفاهيم الدينية الكنسية

تعتبر الكنيسة ـ سواء من زاوية قصور مفاهيمها التي عرضتها في الالهيات او من زاوية سلوكها اللاانساني مع عامة الناس وخصوصا مع الطبقة المثقفة المتحررة فكريا ـ تعتبر من العلل الرئيسة لتمايل العالم المسيحي بشكل مباشر والعالم غير المسيحي بشكل غير مباشر نحو المادية وسنبحث في هذا العامل على صعيدين هما :

١ ـ قصور المفاهيم الكنسية عن (الله وما وراء الطبيعة) .
٢ ـ العنف الكنسي .
اما على الصعيد الاول فنقول :

في القرون الوسطى حيث سلمت مسألة (الله) الى القساوسة ، حدثت سلسلة من المفاهيم الطفولية جدا وغير الناضجة حول الله ، وكان ذلك بشكل لا يتفق مطلقا مع الحقيقة ومثل تلك التصورات ليست لا تقنع الاذكياء والواعين فحسب بل تنفرهم وتحولهم الى اعداء ألداء للمدرسة الآلهية .

التصوير الانساني لله :

اعطت الكنيسة صورة انسانية لله وعرضته للاخرين في قالب بشري . وقد تلقى الافراد صورة الله في قالبها البشري منذ الطفولة ، وتحت تأثير النفوذ الديني للكنيسة ولكنهم بعد النضج العلمي ادركوا ان تلك الصورة لا تتفق مع الموازين العلمية والعقلية الصحيحة .

ومن زاوية اخرى لم يكن أغلب الناس يمتلكون قدرة كافية من النقد ليعوا انه يمكن ان تمتلك المسائل المتعلقة بما وراء الطبيعة نصيبا من الواقع وصورة معقولة ، وان الكنيسة هي الخاطئة . ولذا فانهم لما رأوا ان المفاهيم الكنسية لا تتلاءم والمقاييس العلمية ، انكروا الامر من اساسه .

وقد كتب اربعون عالما اربعين مقالا في اثبات وجود الله وقد ترجم الى العربية بعنوان (الله يتجلى في عصر العلم) حاول كل منهم ان يثبت تلك المسألة من زاوية تخصص ـ وكانوا مختلفي الاختصاص ـ وقد ذكر احد هؤلاء المفكرين وهو (والتراوسكار لندبرك) في تحقيق خاص ضمن بحثه عن مبررات اتجاه البعض نحو المادية ، ذكر ان هناك علتين : والاول منهما ما ذكرناه اي عدم نضج المفاهيم الكنسية التي كانت تعطى بهذا العنوان في البيت او في الكنيسة ونحن اذ نذكر اسم الكنيسة فليس ذلك لان مساجدنا ومنابرنا يحتلها دائما افراد واعون قادرون يعلمون

المفاهيم الدينية ويعلمون ماذا يعلمون لانهم مطلعون على عمق التعـاليم الاسلامية ، بل ان ذلك ــ اولا ــ لكون بحثنا في علل التمايل نحو المادية، وهذا التمايل انما حصل في المجتمعات المسيحية لا الاسلامية ، وما وجـد في العالم الاسلامي من تمايل فانه انعكاس وتقليـد للاتجاه الاوروبي ، وثانيا ــ لانه كان يوجد في البيئـة الاسلامية وعلى مستوى الفـلاسفة والمفكرين مدرسة بامكانها ان تجيب على تساؤلات كل محقق فتمنـع من ان ينجر الامر الى ما انجر اليه في اوربا في حين عدم المحيط الكنسي ذلك •

وعلى اي حال فان لندبرك يرى ان هناك عللا متعددة لعدم اتجـاه لبعض العلماء لادراك وجود الله ــ من خلال مطالعاتهم العلميـة ومنها علتان :

الاولى انه غالبـا ما كانت الظروف السياسية المستبدة او الوضع الاجتماعي او التشكيلات الادارية توجب انكار وجود الخالق •

والثانيـة هي ان الفكـر الانساني يقـع دائمـا تحت تأثير بعض الاوهـام وحتى لو لم يكـن للشخص اي مبـرر للعـذاب الروحـي والجسـي فان فكره قد لا يكـون حـرا تمامـا في مجـال اختيـار الطريـق الصحيـح ، ففي العوائـل المسيحية كـان أغلب الاطفـال يؤمنـون في اوائـل عمرهـم بوجـود الـه شبيـه بالانسان • وكأن الانسان خلق بشكل الله ، وهؤلاء الافراد انفسهم عندما يردون المحيط العلمي ويتعرفون ويمارسون المسائل العلمية يجدون هذا المفهوم الانساني الضعيف عن الله لا يمكنه ان يصمد امـام الدلائل المنطقية والمفـاهيم العلمية ، وبالنتيجة وبعد مدة من الزمان حيث يذوب اي امل لاي انسجام يترك المفهوم الالهي تماما ويخرج من ساحة الفكر ، والعلة الهامـة لهذا

الامر هي ان الدلائـل المنطقية والتعريفات العلمية ، لا تؤثر أثرها فتبدل معتقدات هؤلاء ووجدانياتهم السابقة ، فيكون احساسهم بان ايمـانهم السابق بالله كان ايمانا مغلوطا الى جنب العوامل النفسية الاخرى باعثا على تألم وانزجار الانسان من هذا المفهوم وانصرافه بالكلية عن المعرفـة الالهية [١] .

---

(١) « الله يتجلى في عصر العلم » ص ٥١ .

وخلاصة الحديث

هي ان الشيء الملاحظ في بعض التعليمات الدينية ـ قد يوجد عندنا ايضا الى حد ما ـ هو ان يعطي مفهوما بخصائص معينة للطفل الصغير فينطبع في ذهنه ، وعندما يكبر ويتوفر على بعض المعلومات يجدان ذلك غير معقول ولا يمكن ان يوجد فضلا عن ان يكون الها او غير اله ، ولذا فهو ينكر الالوهية بلا اي تفكير او تصور لا مكان ان يوجد مفهوم صحيح لتصوراته المسبقة كلا وانما يتصوران ما ينكره هو عين ما يؤمن به المؤمنون فهو ينكر الله لانه ينكر هذه الصورة المبتدعة في مذهبه والتي اوحت بها اوهام العوام ، دون ان يتصور ان الله الذي ينكره ـ حسب ما يفهمه هو عنه ـ ينكره المؤمنون ايضا ـ على تلك الصورة. فانكاره ليس انكارا لله بل انكار لما ينبغي أن ينكر، يقول فلاماريون في كتابه (الله في الطبيعة) « ان الكنيسة عرضت الله على اساس ان المسافة بين عينه اليمنى وعينه اليسرى تعادل ٦٠٠٠ فرسخ » ! ومن البديهي جدا ان الافراد الذين يملكون حظا من المعرفة ـ ولو قليلا ـ لا يمكنهم الاعتقاد بهذا الموجود .

الله من زاوية نظر اوغست كونت :

ينقل فلاماريون عن اوغست كونت ـ وهو مؤسس المذهب العلمي « اليوسيتوي » ـ قولا يعبر اصدق تعبير عن الصورة الالهية التي كان يتصورها آنذاك العلماء امثال كونت في المحيط الكنسي اذ يقول كونت « لقد عزل العلم أبا الطبيعة عن عمله وساقه الى الانعزال ، بعد ان قدر له خدماته المؤقتة وقاده الى قمة عظمته » ويقصد بذلك ان كل حادثة كانت تحدث في الماضي كانت تعلل بالاستناد الى الله فعندما تصيب الشخص الحمى يثور هذا السؤال لماذا اصابته الحمى ؟ ومن الذي اوجدها ؟ والجواب حينذاك هو ان الله هو الذي اوجد الحمى ولم يكن هذا الجواب يعني ان الله هو الذي يدبر الكائنات ويحركها ومن هنا نسبت الحمى اليه بل ان ذلك الجواب يعني ان الله مثله مثل الموجود الخيالي المهول او الساحر الذي يسحر من عالم الغيب ـ صمم فجأة وبدون اية مقدمات على ان يخلق الحمى فخلقها !! في حين جاء العلم بعد ذلك فاكتشف ان المرض لم يأت به الله وانما اوجده نوع خاص من الميكروبات وهنا يتراجع الله خطوة الى الوراء ثم يكشف العلم علة مجيء الميكروب فيتأخر الله خطوة اخرى وهكذا يكشف العلم العلة تلو العلة ويتراجع الله خطوة خطوة بالمقدار الذي اتسعت فيه العلوم وهكذا امتلك العلم صفة التعميم وكشف العديد من علل الحوادث وحصل اليقين بأن تلك المعاليل المجهولة العلل تمتلك عللا من سنخها ، فأقال الانسان الله عن عمله لانه قد استنفذ غرض الايمان به فلا محل له في علل الوجود ، فعاد الله شبيها بعامل في مؤسسة اسند اليه عمل مهم ـ اضطرارا ـ حتى اذا

تواجد الافراد ذوي الخبرة والاطلاع الأكثر فانه يفقد مهامه بالتدريج حتى يبقى بلا عمل وحينها فان مدير المؤسسة سيقدم له شكر الهيئة المشرفة على خدماته السابقة ويقبل عذره للاستقالة الى الابد ويبلغه وثيقة انهاء خدماته ويمنحه الاجازة الدائمة !!

والملاحظ ان اوغست كونت يعبر عن الله بانه (ابو الطبيعة) وهو تعبير عن الاسلوب الفكري الكنسي له ، فهو وان كان يخالف الكنيسة الا ان اسلوب تفكيره اسلوب كنسي اذ لم يستطع ان يحرر فكره من تأثيراتها واطرها المنحرفة .

ثم ان كلام اوغست كونت يبدي لنا ــ بوضوح ــ ان الله ــ من وجهة نظره يشبه جزءا معينا من اجزاء العالم وانه عامل الى جنب باقي العوامل الكونية الا انه عامل خفي مجهول . ومن زاوية اخرى فان الحوادث الكونية تنقسم الى نوعين : معلومة العلة ومجهولتها ، ويفسر النوع الاول على اساس ذلك العامل الخفي وكلما اكتشف السبب المادي للحوادث خرجت عن نطاق تأثير ذلك العامل المجهول وصغرت دائرة تأثيره .

ان هذا النمط من التفكير لم يكن اسلوبا خاصا بكونت وانما كان هو الاسلوب العام لذلك العصر .

الواجب الالهي !

فالعمدة في البين ان نشخص بدقة مقام الالوهية وواقعه في هذا الكون ، فهل ان مقام الالوهية يعني ان نجعل الله في الوجود الى صف احد موجودات هذا العالم كجزء منه ثم نخصه بعمل معين من بين الاعمال في العالم كجزء من برنامج لتقسيم العمل في الكون ! وعند محاولة

تشخيص حدود وظيفة الله نستقرىء الآثار المجهولة الصلة من بين مجموع الظواهر والآثار في الكون فننسب تلك الآثار المجهولة العلة الى الله وبتعبير آخر ، نبحث عن الله في اطار مجهولاتنا ومن الطبيعي حينذاك ان كل اكتشاف علمي سوف يضيق نطاق المجهولات فتضيق دائرة الوظيفة الالهية وهكذا حتى نصل الى الحد الذي نستغني فيه عن فرض وظيفة الهية بعد انكشاف المجاهيل البشرية بمجموعها .

ووفقا لهذا الاسلوب من التفكير فان بعض الموجودات الكونية فقط هي التي يمكن أن تعد آيات ومظاهر لعظمة الله وبراهين على وجوده وهي خصوص الموجودات المجهولة العلة اما التي اكتشفت اسرارها وعللها فلا كشف لها عن الذات الالهية .

... وهنا يقع الانسان في دهشة كبرى عندما يواجه هذا المنطق ! فما اعظم هذا الغلط والضلال في هذا المجال ! وما اكبر الجهل الذي يعبر عنه في مجال معرفة الله ــ سبحانه ــ فيلجأ القرآن ويردد معه « وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ٦ ـ ٩١ .

ان من اوليات معرفة الله هي انه ــ تعالى اله كل العالم وان نسبته الى جميع الاشياء على حد سواء ، وانها كلها مظاهر لقدرته وعلمه وحكمته وارادته ومشيئته : وآيات تحكي كماله وجماله وجلاله بلا فرق في ذلك بين معلومة العلة ومجهولتها ، فالعالم كله قائم بذاته تعالى ، وهو متقدم على الزمان والمكان ، فالزمان والزمانيات ، والمكان والمكانيات ، متناهية او غير متناهية اي سواء كانت سلسلة الزمان منتهية او ممتدة من الازل الى الابد ، او كانت الابعاد المكانية والفضائية منتهية الى مكان معين أم لا وبالتالي سواء كانت دائرة الموجودات أعم من كونها في مكان

وزمان غير متناهيين او متناهيين كل هذه ــ على أي فرض ــ متأخرة عن ذاته ووجوده ، وهي فيض من فيوضه ٠

فمن الجهل الفظيع ان نفكر تفكيرا كنسيا وننتظر ــ مثل اوغست كونت ــ ان نكتشف مرتبة وجود الله في زاوية معينة وضمن بحثنا عن علة شيء خاص ٠٠٠ وحينها نحتفل ، ونفرح ٠٠ ان قد وجدنا الله وعثرنا عليه ، اما اذا لم نجده تشاءمنا وأنكرنا وجود الله رأسا ٠

وعلى العكس من هذا النمط الواطىء من التفكير فانه يجب أن ننكر الله في هذه الصورة فقط أي في الصورة التي يكون فيها جزءا كباقي أجزاء العالم ويكتشف ــ ضمن البحث عن ظواهر الكون ــ كظاهرة من الظواهر ، فليس ذلك الها ويجب انكاره قطعا ٠

واذا أردنا أن نعبر عن ذلك بلغة اوضح قلنا.ان هذا الاسلوب من التفكير شبيه بحالة شخص يبصر ساعة يدوية ويقال له ان لها صانعا فيذهب ليبحث عن صانعها ضمن أدواتها وأجزائها المشكلة لها وعندما لا يعثر على اي اثر لمثل هذا الصانع يعود فينكر وجوده ، او بحالة شخص تقدم اليه بدلة مخيطة بشكل أنيق ويقال له ان لها خياطا ماهرا فيذهب ليبحث عن هذا الخياط في جيوبها واذا لم يعثر عليه ينكر ان لها خياطا مطلقا ٠

ان مثل هذا النوع من التفكير غلط مائة بالمائة من وجهة التصور الاسلامي ٠ وان الله ــ من هذه الوجهة ــ لا يقف الى صف العلل الطبيعية لنقول ان هذا الموجود الخارجي صنعه الله او العلة الطبيعية المعينة ٠

كلا ! فان هذا الترديد غلط محض ولا معنى له ، فلا ترديد ولا

مجال لعبـارة (أو) بين الله والعلل الطبيعية ليـأتي هذا السؤال بهذا النمط .

ومثـل هذا التصور تصور لا الهي تمامـا فان التصور الالهـي الصحيح هو ان ينظر للكون من أوله الى آخره جميعـا كوحدة متناسقة خلقهـا الله ، لا أن يركز على جزء من هذه الوحـدة فيتساءل من الذي صنعه أهو الله أم الطبيعة ؟ فاذا لم نعرف العلة بوضوح نسبناه الى الله ، اما لو عرفنا علته قلنا هو مخلوق للطبيعة ولا ربط له بالله تعالى .



المراحل التاريخية الثلاث لاوغست كونت

يقسم كونت مراحل الحياة الانسانية الى ثلاث مراحل ومما يؤسف له أن نجد ان مثل هذا التقسيم مقبول الى حد ما وعلى اختلاف في درجات القبول في حين نجد انه يمثل تصورا طفوليـــا لا أكثر عند من لهم أدنى اطلاع على الفلسفة الاسلامية •

فهو يقول ان البشرية مرت في حياتها بالمراحل الثلاث التالية :

١ ـ المرحلـة الالهيـة :

حيث كان الانسان يفسر الحوادث بتفسير يربطها بعـــالم ما وراء الطبيعة ، فهو يرى ان علة كل شيء هو الله او الآلهة •

٢ ـ المرحلـة الفلسفيـة :

وقد توصل الانسان فيها الى مبدأ العلية ، الا انه لم يكن قد توصل الى معرفة علل الاشياء بالتفصيل فهو ـ لايمانه بمبدأ العلية ـ يحكم بأن أي حادثة لا بد وان تمتلك لها علة موجودة في نفس الطبيعـــة • وهكذا فقد توصل الى وجود قوى في الطبيعة ، وحكم اجمالا بأن الطبيعة تحوي سلسلة من القوى التي تشكل المحرك الاساسي لكل ظواهرها •

ولما كان الانسان في هذه المرحلة ـ يفكر تفكيرا كليا فلسفيا فانه

لم يستطع ان يبدي رأيه الا في مجال « ان لكل حادثة علة » • اما تشخيص هذه العلة وتعيينها فان ذلك لم يكن بمقدوره •

٣ ـ المرحلة العلمية :

وقد توصل الانسان في هذه المرحلة البشرية الى معرفة علل الاشياء في الطبيعة بالتفصيل •

وقد أعرض الانسان في هذه المرحلة عن التفكير الكلي الفلسفي واتخذ لنفسه اسلوب التجربة والملاحظة العلمية وبدأ يعلل الظواهر بعضها بالبعض الآخر •

لقد آمن الانسان فى هذه المرحلة ان هناك ترابطا مستحكما بين الظواهر ، الامر الذي صححه العلم وأكده مما دعانا لتسمية هذه المرحلة بالمرحلة العلمية •

هذه هي الدورات التاريخية الثلاث التي بيّنها اوغست كونت وهي وان أمكن أن تمتلك جانبا من الصحة في مجال النظر السطحي للعامة بمعنى انه في احدى المراحل يرى الناس ان علة احدى الحوادث ـ كالمرض ـ مثلا هي الموجودات غير المرئية كالغيلان والجن وأمثال ذلك ـ كما انه يوجد الآن بين المثقفين وحتى الاوربيين من يعتقد بذلك ولكن هؤلاء اطلعوا على وجود نظام طبيعي وعينوا على المرض بما يحيط بالمريض من أمور ، وعرفوا اجمالا ان هناك تأثيرات من جانب الطبيعة كانت هي السبب في هذا المرض تماما كما يتصور كل اولئك الذين لم يطلعوا على الطب ولكنهم يؤمنون بالتنظيم الطبيعي •

أما في المرحلة الاخرى فقد اكتشفوا الروابط بين الظواهر عن طريق

التجربـة العلمية ، وهذا ايضا ليس بالامر الجديد فقد كانت هذه النظرة قديما كما هي موجودة اليوم ، وان كان التمايل الانساني نحو معرفـة الظواهر وتفسيرهـا ببعضها أصبح اشد في المرحلـة الجديدة . الا أن تقسيم مراحل الفكر البشري على هذا النحو أمر غير صحيح ، فاذا أردنا ان نقسم مراحل الفكر البشري وجب علينـا ان نلاحظ تطورات آراء المفكرين ـ لا عامة الناس وجمهورهم ـ فنجعلها مقياسا لتمييز الدورات عن بعضها ، وبتعبير آخر يجب علينـا أن نأخذ بعين الاعتبـار النظـرة الكونية لقمم الفكر الانساني وحينذاك نجـد ان تقسيم اوغست كونت لم يكن الا خرافة ، فلم يمر الفكر البشري ـ الذي يمثلـه المفكرون في كل دوره ـ بمثل هذه المراحل الثلاث المزعومة .

فمن زاوية المنطق الاسلامي يمكن أن تجتمع هذه الانماط اجتماعا من نوع خاص بمعنى انه في شكل خاص من التفكير نسميه ـ نحن ـ بالتفكير الاسلامي يمكن ان تجتمع الانماط الثلاثة معا ، وبعبارة أخرى فانه يمكن أن يكون الفرد في هذا المنطـق يمتلك أسلوبا فكريا الهيـا وفلسفيا وعلميا . فمن وجهة نظر المفكر المطلـع على الفكر الاسلامـي ليست هناك مسألة من هذا القبيل اي ان علة الحادثة هي ما يؤكده العلم او ما تبينه الفلسفة على شكل قوة او ان علتها ما يسمى باسم (الله) .

فيجب اذن ان يذكّر أمثال أوغست كونت بأن هناك أسلوبا رابعا في الكون غفل عنه ولم يأخذه بعين الاعتبار وهو الاسلوب الجامع .

٢ ـ العنف الكنسي :

بيّنا ـ فيما سبق ـ دور الكنيسة في تموين الاتجـاه المادي من زاوية قصور المفـاهيم الالهيـة الكنسية ، ولكن للكنيسة دور آخر مهم

في مجال دفع الناس الى أحضان انكار اللــه وقد يكون هذا الدور أهم من دورها الاول وهو دور تحميل العقائد والنظريات الكنسية الخاصة في المجالات الدينية والعلمية على النـاس وسلبهم أي نوع من أنـواع الحرية العقائدية في هذه المجالات ٠

فقد كانت للكنيسة ــ علاوة على العقائـد الدينيـة الخاصة ــ سلسلة من المبادىء العلمية حول العالم والانسان كان لها غالبا جـذور فلسفية يونانية وغير يونانية ثم تقبلها بالتدريج العلمـاء الكبار في الدين المسيحي فعادت أصولا مسيحيـة الى جنب أصول العقائد المذهبيـة ، وصارت مخالفة تلك (العلوم الرسمية) أمرا ممنوعا بل ان الكنيسة قد حاربت كل مخالفة من هذا القبيل ٠

ونحن لن نحاول التعرض هنا لمسألة الحرية العقائدية الدينية وان مثل هذه المبادىء العقائدية لا يمكن الاجبار عليها وانما يجب التحقيق الفكري الحر النزيه حولها والا فالضغط الفكري يخالف روح المـذهب والدين القائمة على أساس الهداية ٠

ذلك ان الاسلام هو الذي حمل لواء الاطروحة الداعية الىالتحقيق في أصول الدين ونبذ التقليد العقائـدي الاعمى والتحميـل الفكري ٠ خلافا للمسيحية التي تعتبر أصول الديـن من (المناطق المحرمـة) على العقل البشري ٠

ان خطأ الكنيسة الاساسي كان يكمن في جهتين آخرين هما :

الاول

جعلهـا بعض المعتقدات العلمية البشريـة الموروثـة عن الفلاسفة

الأقدمين وعلماء الكلام المسيحيين ، الى جنب المبادىء الدينية الاصيلة واعتبارها كل مخالفة لها موجبة للارتداد عن الدين .

الثاني

انها لم تكن لتكتفي بمتابعة من يعلن ارتداده وطرد كل من ثبت ارتداده من المجتمع المسيحي وانما أنشأت جهازاً بوليسيا بادنى يتتبع عقائد الناس ويحلل ما في ضمائرهم ويسعى لان يثبت التهمة بادنى مناسبة على المفكر ، فما ان تبرق له اقل علامة على مخالفة لتلك العقائد الدينية في فرد او جماعة حتى ينصب العذاب الاليم على ذلك الفرد او تلك الجماعة . بشكل فظيع جداً .

ومن هنا فلم يكن العلماء والمحققون ليجرأوا على التفكير فيما لا تراه الكنيسة واقعا علميا ، اي كانوا مكرهين على التفكير بما تفكر به الكنيسة . وقد خلق هذا الضغط الشديد على الافكار من القرن الثاني عشر الى القرن التاسع عشر في اقطار مثل فرنسا ، وانكلترا والمانيا ، وهولندا ، والبرتغال ، وبولندا واسبانيا ، خلق ردود فعل سيئة جداً بالنسبة للدين بشكل عام .

انشأت الكنيسة محاكم تسمى بـ « الانكيزيسيون » او محاكم « تفتيش العقائد » واسمها يدل على الغرض منها ويتحدث ويل ديورانت عن هذه المحاكم وكيف كانت لمحكمة تفتيش العقائد قوانين ولوائح خاصة بها ؛ فقبل تشكيل ديوان المحاكمات في مدينة يعلن من على المنابر والكنائس ، الامر الصادر بالايمان ويطلب من الناس ان يوصلوا الى أسماع اعضاء محكمة التفتيش اخبار كل ملحد ولا ديني ومبتدع، فكانوا ـ بهذا ـ يحرضونهم على النميمة واتهام الجيران ، والاصدقاء والاقارب، ويضمن للنمامين ان تبقى اسرارهم تحت طي الكتمان ، اما من كان يعرف

ملحداً ولم يفضحه وعمل على اخفائه في منزله فانه ستبلى باللعن والتكفير ... وكانت وسائل التعذيب تختلف باختلاف الامكنة والازمنة فتارة كانوا يشدون يدي المتهم الى الخلف ثم يعلقونه بهما ، كما ان من الممكن ان يوثقوه وثاقا محكما بحيث لا يقدر على الحركة ثم يضخون الماء في بلعومه حتى يختنق كما كان من الممكن ان يشدوا الحبال في يديه ورجليه بقوة هائلة بحيث تخترق الحبال اللحم فتصل الى العظم ... وفي موضع آخر يقول ان عدد الضحايا من عام ١٤٨٠ ـ ١٤٨٨ اي خلال ٨ سنوات يقدر بـ ٨٨٠٠ محروق و ٩٦٤٩٤ محكوما بالاشغال الشاقة والعقوبات الاخرى ، ومن عام ١٤٨٠ الى ١٨٠٨ احرق ٣١٩١٢ شخصا وحكم ٢٩١٤٥٠ شخصا بالاشغال الشاقة وباقي العقوبات الشديدة » [1] .

وقد عنون جورج سارتن استاذ تاريخ العلم المتخصص واحد رواده المعروفين في كتابه (الاجنحة الستة) فصلا بعنوان (السحر) يرينا فيه ماذا فعلته الكنيسة من جنايات باسم مكافحة السحر فيكتب قائلا.« ان العلماء الالهيين ورجال الدين اعتبروا ـ عن شعور او لا شعور ان الزندقة والسحر شيء واحد ، فان الانسان يصل بسرعة الى استنتاج يقول : ان من لا يتفقون معي هم اناس اوباش حقراء !

وكان السحرة رجالا او نساء باعوا ارواحهم للشيطان ـ وعلى فرض ان يكون الزنادقة وغير المتدينين يمتلكون علاقة من نوع ما مع الشيطان فان عقابهم وتنبيههم وتعذيبهم كان يعتبر جائزاً بكل سهولة ... اما اولئك المتدينون المستقيمون على دينهم فكان من الممكن ان يقولوا لانفسهم : ان هؤلاء المشاغبون المثيرون للفتن سحرة ويجب ان

---

(١) يراجع قصة الحضارة ج ١٨ ص ٣٥٠ وص ٣٦٠ من الترجمة الفارسية والجزء ١٦ من الترجمة العربية .

نعاملهم كذلك فهم لا يستحقون ان يمتلكوا ايمانا صحيحا ولا ان يقعوا موقع العفو » •

ثم يحدثنا جورج سارتون عن كتاب باسم « مطرقة السحرة » كتبه قسيسان دومينيكيان بايعاز من البابا اينو سنت الثامن (وقد احتل كرسي البابوية من ١٤٨٤ الى ١٤٩٢م) وهو يشكل في الحقيقة تعليمات لكيفية تفتيش عقائد المتهمين بالزندقة والسحر فيقول : « وكتاب (المطرقة) يعتبر تعليما عمليا لارشاد المفتشين لعقائد الناس فكانت تبدو فيه اساليب كشف السحرة والحكم عليهم وعقابهم ••• وكان الخوف من السحرة يشكل العلة الاصلية لقتلهم ونفس قتلهم كان يسبب ازدياد الخوف فقد ابتلى العامة آنذاك بمرض نفسي شعبي لم ير له شبيها الى عصر النور الحاضر • وقد سجلت محاضر الجلسات لبعض تلك المحاكمات بدقة وبقيت لحد الآن ، ولم يكن المفتشون اناسا غير طيبين بل كانوا يتصورون انفسهم اعلى من النمط الاعتيادي من الناس ـ على الاقل ـ اليسوا هم الذين يعملون ويسعون بجهد متواصل لاعلاء كلمة الحق واسم الله ؟!

وقد سبب نيكولارمي مفتش عقيدة لورن ان يحرق ٩٠٠ ساحر خلال خمسة عشر سنة (من ١٥٧٥ الى ١٥٩٠) م وكان رجلا ذا وجدان وقد احس بانه مذنب في اخر عمره لانه غض النظر عن قتل بعض الاطفال وهل يستطيع احد ان يتجنب قتل ولد الافعى ؟ وقد اصدر بتربينزفلد اسقف ترز امرا باعدام ستة آلاف وخمسمائة شخص » •

ثم يقول :

« ما ان يصل مفتشوا العقيدة الى ناحية جديدة حتى يعلنوا انه يجب

على من يظن سوءا بساحر ان يقدم معلوماته ، وآذا اخفى احد معلوماته فانه يتعرض للنفي ويؤخذ مبلغ كغرامة على ذلك » •

« وكانت مسألة تسليم المعلومات في هذا المجال تتخذ صبغة واجب ولا يفشي اسم من يعطيها ، اما المتهمون ــ وكان من الممكن ان يكون بينهم اناس وشيء بهم من لهم عدواة شخصية وبدون حق معهم ــ هؤلاء لا يخبرون بنوعية التهمة المنسوبة اليهم ولا بالادلة المقامة ضدهم • فانه كان يفترض ويقبل ان هؤلاء اناس مذنبون ومسيئون وان عليهم ان يثبتوا معصيتهم ، وكان الحكام يستعملون كل الوسائل الفكرية والبدنية ليجبروا هؤلاء على الاقرار بالذنب وافشاء اسماء المتعاونين معهم، ولاجل ترغيبهم كانوا يعدونهم بتخفيف العقوبة ، ولكن اولئك المحكمين كانوا يتصورون ان ليس هناك اي ملزم اخلاقي للوفاء بالعهد المعطى للسحرة وغير المتدينين الا انهم كانوا يلتزمون بهذا الوعد خلال مدة قليلة يقول فيها المتهم كل ما يقال • وكان هؤلاء يجيزون لانفسهم اي عمل خارج عن حدود الشرف يعامل به هؤلاء المتهمون لانه يملك هدفا مقدسا وكلما كانوا يعذبون الناس كانوا يرون ذلك اكثر ضرورة • وكل هذا الذي قلناه يمكن ان يؤيد بكل سهولة عند مراجعة (المطرقة) والكتب الاخرى وكذلك وبشكل اكثر حسية عند مطالعة محاضر جلسات المحاكمات المتوفرة كثيرا » [1] •

وبعد ثلاث او اربع صفحات من البحث في هذا المجال يقول : « ان الاعتقاد بالسحر في الحقيقة مرض دماغي اخطر من مرض السفلس وقد سبب الموت الفجيع الموحش لآلاف الرجال والنساء البريئين • ومع التجاوز عن ذلك فان التوجه لهذا الموضوع يكشف لنا عن جانب مظلم

---

(١) كتاب (الاجنحة الستة) ص ٢٩٦ ــ ٢٩٨ من الترجمة الفارسية .

جداً من الرونسانس الذي يعتبر خداعه ـ عادة ـ اقل من الاشياء الاخرى التي تقال ـ عادة ـ في مثل هذه المرحلة الا ان معرفة ذلك ضرورية لمعرفة حوادث هذه المرحلة الزمنية معرفة صحيحة . فان الرونسانس كان يشكل المرحلة الادبية للفن والادب الا انه في نفس الوقت كان عصر عدم التسامح الديني والقسوة وعدم الرحمة . فان لا انسانية تلك المرحلة قد بلغت الى حد لا يضاهيه اي زمان سوى عصرنا الحاضر »[1] .

وهكذا لاحظنا .

ان الدين الذي كان ينبغي ان يكون هاديا ومبشرا بالمحبة قد اصبح على هذه الحالة الآنفة فكان تصور كل انسان عن الدين والله يعني العنف والضغط والاستبداد . وواضح ان ردود الفعل لدى الناس في قبال مثل هذه الاساليب « يمكن ان تكون سوى رفض الدين من اساسه ورفض ما يشكل حجر الاساس فيه وهو الاعتقاد بالله . فانه ـ في اي زمان ومكان ـ لبس القادة الدينيون ـ والناس على اي حال يتصورونهم ممثلين واقعيين للدين ـ لبسوا جلد النمر وحدوا اسنانهم القاطعة كالحيوانات الكاسرة ، وتوسلوا الى اغراضهم بالتكفير والتنسيق وخصوصا اذا كانت اغراضهم الخاصة على هذا النحو ـ فاننا لن نتوقع الا ان توجه اقوى الضربات لصرح الدين . ولصالح المادية .

(١) نفس المصدر ص ٣٠٣ .

قصور المفاهيم الفلسفية

يعتبر قصور المفاهيم الفلسفية في اوربا العلة الثانية في مجال الدفع نحو المادية دفعا عاما .

والحقيقة هي : إن اوربا متأخرة جدا في مجال الفلسفة الالهية وقد لا يمكن ان يتصوره البعض ويقبلوا ان اوربا لم تصل بعد الى عمق الفلسفة الالهية في الشرق وخصوصا الفلسفة الاسلامية فان الكثير من المسائل الفلسفية التي تحدث دويا هائلا في اوربا تعتبر من الامور البسيطة في مجال الفلسفة الاسلامية .

واننا لنعثر على امور مضحكة حقا في ترجمات الفلسفة الاوربية ولكنها تعنون على اساس انها مفاهيم فلسفية ابدعها فكر فلاسفة عظام في اوربا .. كما اننا نجد ان هنا امورا في الفلسفة الالهية عجزت عن حلها فلاسفة كبار وقلت مقاييسهم في مجال الجواب عنها .

ومن الواضح جدا ان انماط القصور هذه تهيء ارضية صالحة للمادية بلا ريب .

مشكلة العلة الاولى

ومن المفيد هنا ان تتعرض الى بعض النماذج واحدها قصة « العلة الاولى » في الفلسفة الاوربية ، ورغم ان السير في مراحل هذه المسألة فيه قدر من الصعوبة الا اننا نأمل ان يتحمل القراء ذلك .

« هيكل » احـد الفلاسفة الكبار المعروفين في العالـم ولا يمكن ــ انصافا ــ ان تنكر عظمته وان في كلامه كثيرا من الامور الصحيحة •

ونحن هنا ننقل عنه موضوعا في مجال احدى اهم المسائل الالهيـة ثم نعمل على مقارنته بما يقابله في الفلسفة الاسلامية •• وهذا الموضوع يدور حول (العلة الاولى) اي حول ذات واجب الوجود من حيث كونه علة للموجودات •

يذكر فروغي في كتابه « سير الحكمة في اوربا » ان هيكل كـان يقول : يجب ان لا نبحث عن العلة الفاعلية عندما نريد حل لغز عالم الخلق• وذلك لان الذهن من جهـة لا يرضى بالتسلسل فيلجئنا للقبول بالعلـة الاولى ، ومن جهة اخرى فانا لو لاحظنا العلة الاولى فان اللغز لم ينحـل بعد ، ولم يقتنع الطبع بذلك اذ المشكلة باقية والتساؤل باق على حاله : فلماذا كانت العلة الاولى علة اولى ؟

ولاجل ان ينحل اللغز والمشكلة يجب ان نعرف غايـة الوجود او وجهه او دليله ، فاننا لو عرفنا لماذا وجد ، وبعبارة اخرى •• فاننا لو علمنا بان الوجود امر معقول ، اقتنـع الطبع ولم يعد يبحث عـن علة اخرى وطبيعي ان كل شيء يحتاج الى توجيه وتبرير لازم اما التوجيه والتبرير نفسه فلا يحتاج الى توجيه » •

ولم يستطع شارحوا كلامه ان يلتفتوا الى مراده ولكن قـد يمكن ــ بعد اعمال الدقة ــ ان ندرك ما هو السر الذي دعاه لهذا القول ؟

فلو اردنا ان نعبر عن الامر بلغة فلسفتنا نحن وبشكل يتطابق مـع ما قال او يقرب مما قال ــ على الاقل ــ وجب ان نقول : اننا يجـب ان

نقبل الله بصورة امر يقع موردا لقبول الذهن مباشرة ـ لا بشكل امر يجبر الذهن على قبوله ـ

ففرق بين امر يدرك الذهن لميته مباشرة ويكون قبوله له قبولا طبيعيا ، وامر آخرى يقبله ايضا ولكن لا لشيء الا لان الدليل الملزم قام على بطلان الفرض المقابل لذلك الامر ، فهو في الحقيقة انما يقبل هذا الامر لانه لا يستطيع ان يجيب على الدليل الذي يثبت بطلان ما يناقض الامر ، واذا ثبت للذهن ان يقتضي هذا الامر امر باطل ـ بالبرهان الملزم ـ فانه يكون ملزما بالطبع لقبول الامر نفسه بعد بطلان نقيضه ، فلا يمكن ان يصدق الشيء ونقيضه • وانما يجب قبول احد النقيضين ، فبطلان احدهما دليل على صحة الآخر •

ان قبول مطلب ما على اثر بطلان نقيضه يشكل نوعا من الالزام والاجبار للذهن ، ولكنه لا يوجد الاقناع • وفرق واضح بين الاجبار والالزام الذهني ، والاقناع والارضاء له •

فما أكثر ما يحدث ان يسلم الانسان امام دليل لانه لا يملك ما يرده به ، ولكنه يبقى شاكا في عمق وجدانه ، ويحس بشيء من عدم الرضا به •

وهذا التفاوت نجده بين (الرهان المباشر) و (برهان الخلف) فقد يعبر الذهن (المقدمة) و (الحد الاوسط) بشكل طبيعي وعادي وواع ويصل الى النتيجة ، والنتيجة هي الوليد الطبيعي لـ (الحد الاوسط) وذلك كما نلاحظه في البراهين اللمية ، فان الذهن في مثل هذه البراهين يستنتج النتيجة بشكل طبيعي من المقدمات وتكون النتيجة ـ لدى الذهن ـ بمثابة وليد يولد من أب وام بشكل عادي • ولكن

(برهان الخلف ليس كذلك) وحتى البرهان الاني فانه لا يكون كذلك .

ففي برهان الخلف ، يقبل الذهن النتيجة مكرها وتكون حالة الذهن آنذاك حالة انسان محكوم لقوة طاغية لا يمكنه الا الاستسلام امامها فهو يستسلم لانه لا يستطيع المقاومة .

ففي مثل هذه البراهين ولان البطلان ينصب على احد الطرفين فانه يلجأ الذهن لقبول الطرف الآخر ، وانما وقع الطرف الآخر موردا للقبول لان الطرف الاول قد ورد عليه الاشكال وقام البرهان على بطلانه ولما كان لا يمكن رفض الطرفين معا فان الذهن مكره على قبول الطرف الآخر والا للزم ارتفاع النقيضين وهكذا يكون قبوله لهذا الطرف قبولا اجباريا غير طبيعي .

ان هيكل يريد ان يقول .. ان لجوءنا للعلة الاولى انما هو من النوع الثاني من البراهين ، فلا يدرك الذهن العلة الاولى بشكل مباشر . ولكنه يؤمن بها فرارا من التسلسل ، اذ يرى نفسه انه لا يمكن ان يقر التسلسل ، ولكنه مع ذلك لا يمكنه ان يدرك الفرق بين العلة الاولى وباقي العلل فلماذا احتاجت باقي العلل للعلة في حين استغنت العلة الاولى عنها، او ــ كما عبر هو ــ لا يمكن ان يفهم لماذا صارت العلة الاولى علة اولى ؟ الا اننا اذا تتبعنا الوجه والغاية فانا نصل الى وجه وغاية تكون الوجهية والغائية فيه عين ذاته فلا تحتاج الى علة وغاية وراء ذاتها .

واننا لنجد نظير هذا الكلام عند كل من (كانت) (وسبنسر) اذ يقول سبنسر « ان المشكلة تكمن في ان عقل الانسان من طرف يتطالب العلة لكل امر ومن طرف آخر لا يمكنه ان يقبل الدور والتسلسل ، كما انه لا يجد العلة التي لا علة لها ولا يفهمها ايضا تماما كما يقول القسيس للطفل ان الله خلق العالم ، فيعود الطفل ليسأله : ومن خلق الله ؟ » .

وكذلك نجد شبيه هذا الكلام بل واسخف منه عند جان بول سارتر الذي قال في هذا الصدد ـ كما ينقله عنه ـ بول فولكييه « ان من التناقض ان يكون وجودا ما علة « لنفسه » ثم يعقب فولكييه على قول سارتر موضحا فيقول : ان البرهان المذكور الذي لم يفصله سارتر، يعرض ـ عادة ـ على النحو التالي :

ان ادعينا اننا بانفسنا ابدعنا وصنعنا انفسنا فانه يجب التصديق باننا كنا موجودين قبل وجودنا وهذا هو التناقض الواضح الذي يبدو في هذا الادعاء »(١) .

ويجب الآن ملاحظة كيفية (التصوير الواقعي) لنظرية (العلة الاولى) على الصعيد الفلسفي . فهل هو بهذا النحو الذي بينه سارتر وامثاله حيث يوجد شيء نفسه او نقل يضع اسس بناء نفسه هو ، وهذا يلزمه ان يكون الشيء علة نفسه ومعلولا لها ؟

او ان الامر كما يتصوره كانت وهكل وسبنسر باعتبار العلة الاولى موجوداً حصل فيه استثناء من مبدأ العلية ، بمعنى انه رغم احتياج كل شيء للعلة وانه لا يمكن ان لا يكون بلا علة فان العلة الاولى كانت بلا علة كحالة استثنائية ؟

وهل ان امتناع التسلسل الذي يلزمنا بالقول بالعلة الاولى ، يلزمنا ايضا ان نقبل بان يكون شيء ما علة لوجوده؟ وهل ان ذهننا يلزم بالاقرار بمحال فرارا من الوقوع في محال آخر ؟ ولماذا ؟ فاذا كان البناء على عدم قبول المحال فلماذا الاستثناء من ذلك ؟

وطبقا لصورة سارتر فان العلة الاولى محتاجة ـ ككل الاشياء ـ

---

(١) (الوجودية) لـ بول فولكييه ـ الترجمة الفارسية ص ٩٦ .

الى علة الا انها تؤمن احتياجها بنفسها في حين انه طبقا لتصور كـانت وهيكل وسبنسر يجب علينا ان نستثني شيئا من الاشياء المتساوية ـ في نظر العقل ـ ونقول ان كل الاشياء تحتاج للعلة الا واحدا وذلك الواحد هو العلة الاولى •

اما لو تساءلنا ما الفرق بين العلة الاولى وسائر الاشياء التي تحتاج كلها للعلة في حين استثني ذلك الفرد منها ؟ فان الجواب هو ان العقل ـ مع انه لا يرى فرقا بينهما الا انه ـ لاجل الفرار من التسلسل الممتنع ـ مجبور على ان يفرض احد الاشياء مستغنيا عن العلة • وهكذا نجـد انه لم يفرض ـ في هذا التصوير •

ان العلة الاولى محتاجة للعلة وهي تؤمن حاجة نفسها (كما رأينـا في تصوير سارتر) بل فرض ان العلة الاولى لا تحتاج الى العلـة التي توجدها اي انها مستثناة من القاعـدة اما لماذا لا تحتاج ؟ ولماذا هـي مستثناة ؟ فانه لا جواب على ذلك •

ولما كان التصوير الاول طفوليا ، لا يملكه عن الله اي فيلسوف او نصف فيلسوف بل واكثر الناس العاديين ، فاننا نبحث ـ باختصار ـ حول التصوير الثاني موضحين في الاثناء التصوير الصحيح •

ومن وجهة نظرنا ـ فان الشك والترديد الذي لاحظنا ، عند امثال كانت وهيكل وسبنسر حول العلة الاولى يرجع الى موضوعين فلسفيين اساسيين لم يكن اي منهما قد حل في الفلسفة الغربية وهما :

مسألة « اصالة الوجود » ومسألة « مناط الاحتياج للعلة » وليس هنا مجال البحث والتوضيح في مسألـة (اصالة الماهية) او (اصالـة الوجود) التي تقابلها •• وانما نكتفي بتوضيح نقطة هامة في البين هـي

انه بناء على اصالة الماهية (وذلك ايضا على اساس من نظرة سطحية غير عميقة اي افتراض ان الله له ـ كسائر الذوات ـ ماهية ووجود وهي نظرة يرفضها حتى انصار اصالة الماهية حيث يعتبرون الله وجودا محضا) بناء على هذه الاصالة يكون هناك مجال للبحث والتساؤل بما يلي : لماذا كانت كل ذات تحتاج الى علة في حين نرى الذات الالهية غنية عن ذلك ؟ ولماذا تكون احدى الذوات واجبة الوجود والبواقي ممكنة الوجود ؟ اليست كل الذوات ماهيات يعرض عليها الوجود ؟

لكنه بناء على نظرية (اصالة الوجود) ـ وبطلها من حيث الاثبات الفلسفي واقامة البراهين هو صدر المتألهين الشيرازي ـ يتغير الموقف فعلى ضوء النظرية الاولى ينطلق تصورنا للاشياء على اساس ان ذواتها ـ بما هي ـ هي غير (الوجود) وان (الوجود) شيء يفاض على الذوات من قبل موجود آخر وهذا الموجود الآخر هو العلة ، ولكن طبق (اصالة الوجود) تكون الذوات الحقيقية للاشياء نفس حظها من الوجود ولا يكون الموجود ذاتا يمنحها الوجود موجود آخر وعليه فلو لزم ان تفيض العلة الخارجية على الاشياء فالامر المفاض هو ذوات الاشياء التي هي عين وجودها لا انه امر عارض زائد على ذوات الاشياء . وهنا ينطرح موضوع آخر وهو هل يجب ان يكون الوجود ـ من حيث انه وجود (أي في اي شكل ومظهر ومرتبة كان) مفاضا من قبل موجود آخر ولازم ذلك ان يكون الوجود ـ من جهة كونه وجودا ـ عين الافاضة وعين الفيض وعين التعلق وعين الاثر والمؤخر وبالتالي فهو عين المحدودية ، او ان هناك جهة اخرى في البين ؟

والجواب هو : ان حقيقة الوجود ـ وهي في نفس الوقت الذي تمتلك فيه مراتب ومظاهر مختلفة ليست الا حقيقة لا غير ـ لا تستلزم الاحتياج والفقر لشيء آخر ؛ ذلك لان معنى الاحتياج والافتقار في

الوجود (خلافا للاحتياج والفقر الذي فرض سابقا في الماهيات) هو ان يكون الوجود عين الحاجة والفقر ، واذا كانت حقيقة الوجود عبر الافتقار والاحتياج يلزم ان يكون لها تعلق بحقيقة اخرى غيرها في حين انـه لا يتصور للوجود غيرا وما وراء . ان غير الوجود ليس الا العدم والا الماهية وهي على الفرض (امر اعتباري) فرضي لا غير فهي توأم العدم ، وهكذا فان حقيقة الوجود ــ من جهة كونها حقيقة الوجود ــ تقتضي الاستقلال والغنى وعدم التعلق بغيرها وتوجب الاطلاق والتحرر واللامحدودية بمعنى انها توجب ان لا يكون هناك سبيل او اي لوثة للعدم ــ باي لون ــ فيها . اما الفقر والتعلق وكذلك المحدودية والتشابه مع العدم فهي كلها ناشئة من اعتبار آخر غير نفس الوجود ــ بنفسه ــ انها تنشأ من التأخر والمعلولية . ونعني بذلك ان الوجود من جهة كونه وجودا وبقطع النظر عن اي اعتبار آخر يوجب الاستغناء والاستقلال عن العلـة ، اما الاحتياج للعلة (وبعبارة اخرى كون الوجود في مرحلة ومرتبة ما محتاجا للعلة) فانه من عدم كون الشيء غير حقيقة الوجود ليصدر من الله بشكل فيض من فيوضه ، ولازم كونه فيضا هو التأخر والاحتياج بل ليس هو ــ في الحقيقة ــ الا التأخر والاحتياج . ومن هنا نعرف :

انه بناء على اصالة الوجود اذا قصرنا النظر على حقيقة الوجـود وجدنا الغنى والاوليـة ، وبعبارة اخرى ، فان حقيقة الوجـود تساوي الوجوب الذاتي او نقول ــ بتعبير يرتضيه هيكل ــ ان الوجه المعقول لحقيقة الوجود هي الاستغناء عن العلة . اما الاحتياج للعلة ــ بتعبيرنا ــ فهو حاصل من اعتبار اضافي على حقيقة الوجود وهو ذلك التـأخر وتلك المحدودية ، اي ان الاحتياج للعلة هو عين تأخر مرتبة الوجود عن حقيقة الوجود فيكون الاحتياج للعلة وجها غير معقول للوجود ــ بتعبير هيكل ــ .

وهذا هو معنى ما يقال : من ان الصديقين اذ ينظرون الى حقيقة الوجود ويركزون على الوجود بقطع النظر عن اي قيد او اضافة فـان اول امر يكتشفونه هو ذات (واجب الوجود) و (العلة الاولى) ثـم يمضون ليعرفوا ـ عبر معرفة ذات واجب الوجود ـ الآثار والمعلولات له والتي هي ليست وجودا محضا بل وجودات محدودة توائم العـدم . وهذا هو معنى القول بانه لا يكون اي شيء واسطة لاثبـات ذات الله ـ في مثل هذا المنطق ـ فذات الله نفسها شاهدة على وجودها « شهـد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم » .

ومن هنا يقول الشاعر الفارسي

آفتاب آمد دليل افتاب   كردليلت بايد ازوي رخ متاب

سايه كر ازوي نشاني مي دهد شمس هردم نورجاني ميدهد

ويقصد انه : انما تقوم الشمس دليلا على الشمس ، فـان اردت دليلا عليها فانك لن تجد خيرا منها دليلا عليها ... واذا امكن ان يكون الظل شاهدا على الشمس فان الشمس نفسها في كل لحظة تمـلأ الكون نورا وروحا .

ومن هنا يعلم سخف قول من قال : بان فرض العلة الاولى يستلزم التناقض لانه يستلزم ان يكون شيء ما مؤسسا وبانيا لنفسه وان يكون موجودا قبل نفسه هو .

وكذلك قول من قال : لنفرض اننا اثبتنا بالدليل ان العلة الاولى هي التي خلقت كل الاشياء ولكن يبقى سؤال بلا جواب وهو : اذن من الذي اوجد العلة الاولى ؟ وهكذا تكون العلة الاولى استثناء بلا دليل .

فقد وضحنا انه بناء على (اصالة الوجود) يكون هذا السؤال بلا

معنى مطلقا ، الا اننا نقول هنا انه حتى على اساس من اصالة الماهيـة لا معنى لهذا التساؤل ، اذ انما يكون مجال للسؤال في ما اذا الزمنـا بان نفترض ان الواجب الوجود ـ مثله مثل سائر الاشياء ـ ماهية موجودا عارضا عليها . ولا ملزم مطلقا ـ لمثل هذا الغرض ـ بل نحن ملزمـون بفرض خلاف ذلك ... بمعنى ان الضرورة التي دعتنا ـ بحكـم امتناع التسلسل ـ لان نقبل العلة الاولى التي هي واجبة الوجود ، وضرورة امتناع ان يكون واجب الوجود حقيقة مركبة من الماهية والوجود، هاتان الضرورتان تفرضان علينا ان نحكم بانه وجود محض و « انية صرفة » فينتفي مجال السؤال طبعا .

وهذا الاستدلال ـ تام ايضا ـ بناء على اصالة الماهية وقد سلكه أمثال ابن سينا . نعم اذا بقي سؤال فهو من جانب آخر وهو انه اذا كانت حقيقة واجب الوجود الوجود المخلص ، فما هي حقيقة سائر الاشياء ؟؟ فهل حقيقة سائر الاشياء ماهياتها اما الوجود فيها فهو أمر اعتباري وعند ذلك فيكون العالم ذا حقيقتين ! أو حقيقة سائر الاشياء هي نصيبها من من الوجود .

ان الجواب الصحيح على هذا التساؤل هو ان نختار الشق الثاني وهذا هو القول بـ (اصالة الوجود) .

وطبيعي ان نلتفت الى هذه النكتة وهي ان امثال ابن سينا لـم يكونوا ليتنكروا اصالة الوجود .. فلم تكن آنذاك قد طرحت مسألـة اصالة الوجود واصالة الماهية بين الفلاسفة وغيرهم .

ولذا فسؤالنا الذي تساءلنا به حول بيان ابن سينا كان سؤالا لـم يطرح آنذاك لا اشكالا على بيانه . وعلى اي حال فبقطع النظر عن اصالة

الوجود فان اشكال امثال كانت وهيكل وسبنسر ليس صحيحا .

ولننتقل الى موضوع (ملاك الاحتياج للعلة) فنحاول توضيحه .

سر الاحتياج للعلة :

يعتبر قانون العلية ورابطة السببية والمسببية بين الاشياء من أوضح المعارف البشرية وأشدها جزما ، فان ارتبـاط المعلول بالعلة ليس أمرا صوريا وظاهريا بل هو عميق في وجود المعلول وواقعه، بمعنى ان المعلول بتمام واقعه يرتبط بالعلة بحيث انه لولا واقع العلة لكان تحقق واقـع المعلول محالا .

وقد بنيت العلوم البشريـة على اساس من هذا القـانون ، وقد أثبتنا في محاله ان الفرار من هذا المبدأ يساوي نفي أي نظام في الوجود ورفض أي قانون علمي او فلسفي او منطقي او رياضي ولذا فلا نحتـاج لأن نبحث هنا اكثر من هذا حوله .

وقد طرح الفلاسفة الاسلاميون في هذا المجال مسألة [1] مقدمـة ـ من جهة ـ على مبدأ العلية وهي انه ما هو ملاك الاحتياج للعلة وشره؟ وعليه فينطرح سؤالان في كل مورد، فمثلا في مورد علية (أ) لـ (ب) يوجد سؤالان هما : الاول لماذا وجدت (ب) ؟ وجوابه ان وجود (أ) اقتضىوجود (ب) وان لم يوجد (أ) لم توجد (ب) قطعا، فوجود (أ) نفسه يشكل جوابا

---

(١) هذا التساؤل طرح اول ما طرح من قبل الفلاسفة الاسلاميين وكـان ككثير من المسائل الاخرى نتيجـة لمناقشات واعتراضات من قبـل المتكلمين عليهم ، والحقيقة ان للمتكلمين ـ من هذه الزاويه ـ الحـق الكبير على الفلسـفة لانهم بهذه الاشكالات دفعوا الفلسفـة لان تطـرح بحوثا خاصة ويبحث حولها بعمق ودقة مما اثروا معه الفكر الفلسفي.

على السؤال الاول ، فاذا فرضنا ان بيتا تهدم في اثناء جريان السيل فاذا سئلنا لماذا تهدم البيت ؟ أجبنا لمجيء السيل .

والثاني هو

لماذا كانت (ب) محتاجة لـ (أ) ولا يمكن ان توجد بدون (أ) ؟ ولماذا لم تكن (ب) مستغنية عن (أ) ؟ ومن البديهي أنه لا يجاب على هذا السؤال بأن وجود (أ) هو الذي اقتضى ذلك وانما يجب البحث عن جواب آخر .

وهنا نقول : ان جواب السؤال الاول يمكن آن يجيب عليه العلم آلذي هو حصيلة تجارب وملاحظات بشرية ، ذلك لأن وظيفة العلم هي كشف روابط العلية والمعلولية بين الاشياء [1] .

فاذا سئلنا عن علة (ب) أجبنا ـ مستعينين بالعلوم ان علة باء هي ألف . اما موضوع لماذا كانت باء محتاجة لألف ؟ ولماذا لم تكن مستقلة ومستغنية عن ألف وأي علة أخرى ؟ فانه خارج عن نطاق العلوم ولا يمكن الجواب عليه بالاستعانة بالتجربة والملاحظة والتجزئة والتركيب والادوات المختبرية وهنا يبدو لنا ان الدور الرئيسي هو للتحليلات الفلسفية والحسابات العقلية الدقيقة ، ذلة لان مورد السؤال ليس ظاهرة عينية حسية ، فان احتياج المعلول للعلة في نفس الوقت الذي هو فيه حقيقة لا تقبل الانكار فانه ليس ظاهرة منفصلة عن العلة والمعلول ، فليس في الخارج ظواهر ثلاث ، العلة والمعلول واحتياج المعلول للعلة ،

---

(١) واضح ان البيان المذكور اعلاه مبني على نوع من التسامح ، فان العلم نفسه عاجز عن اثبات رابطة العلية والمعلولية اي اثبات احتياج المعلول للعلة ، فاقصى ما يمكن ان يثبت في المجال العلمي هو اثبات التقارن او التوالي بين الظواهر وقد اوضحنا هذا المعنى في حواشي الجزء الثاني من (اصول الفلسفة) بشكل تام .

ولهذا بالضبط فان العلم عاجز عن الاجابة لان عمله هو في مجال معرفة الظواهر العينية في حين نرى الفلسفة التـي هي قادرة على كشف هـذه الروابط والنفوذ الى عمق الحقائق ، نراها هي المسؤول الوحيـد عن الاجابة على مثل هذه التساؤلات .

ومن وجهة نظر الفلسفة فان الامر لا يكمن في انه ما دمنـا لم نر باء توجد بدون الف فان باء اذن محتاجة لألف وهكذا كل معلول آخر بالنسبة لعلته ، وانما ترى الفلسفة ان المعلـول يستحيـل ان لا يكون معلولا ويكون مستقلا عن علته ، فتعلق المعلول وارتباطه لا ينفـك عن واقع المعلول بل هو عين واقعـه . ومن هنا ـ وبلا التفـات لمعلوليه خصوص باء لألف طرحت الفلسفة مسألة كلية : وهي انه أين يكمن سر الارتباط العلية والمعلولية والاحتياجات القطعية العلية والمعلولية ؟ وهل ان الاشياء محتاجة للعلة لأنها (أشياء) و (موجودات) اي ان الشيئية والموجودية لا تشكل ملاك التعلق والاحتيـاج واذا كان البناء على ان يكون مجرد الشيئية والموجودية ملاكا لشيء فيجب ـ على القاعدة ـ أن يكونا ملاكا لعدم الاحتياج وعدم التعلق لامـلاك الاحتياج والتعلـق وان الذي يناسب أن يكون ملاكا للاحتيـاج والتعلـق هو النقص من النقص في الشيئية والموجودية لا نفس الشيئية والموجودية ولا الكمـال في الشيئية والموجودية ؟

ولم يفترض أي من الفلاسفة او المتكلمين الاسلاميين الذين طرحوا هذا البحث ان صرف الشيئية والموجودية هي مـلاك الاحتياج والتعلق حيث يكون لازم ذلك وجوب أن يكـون الموجود متعلقا مـن جهة كونه موجودا وانما اعتبروا أن من المقطوع به ان حيثيـة الاشياء وجهاتهـا الاخرى التي تعود الى جوانب النقص والعدم يجب أن يكمن فيهـا سر الاحتياج للعلة ، وقد أبديت في هذا المجال نظريات ثلاث هي :

الاولى

نظريــة المتكلمين : وقــد رأى المتكلمــون ان مــلاك احتيــاج المعاليل للعلل وعدم استقلالها هو (الحدوث) أي سبقها بالعدم في حين يكون ملاك الغني وعدم احتياج الشيء للعلة هو (القدم) وكون الشيء (دائميا) .. فقد قال هؤلاء انه اذا كان وجود ما مسبوقا بالعدم وكان عدمه يسبقه وجوده وبعبارة أخرى كــان معدوما في زمان وموجودا في زمان بعده فمثل هذا الموجود لانه كان معدوما ثــم وجد محتاج للعلــة التي توجده ويكون وجوده وجــودا مرتبطا بالغير ، امــا لو فرض ان موجودا ما كان موجودا دائما ولم يأت زمان كان فيه معدوما فان مثل هذا الموجود مستقل مستغني عن العلة ولا يرتبط أي ارتباط بغيره .

وهكذا صرح المتكلمون انه معنى علية شيء لشيء أساسا مثلا معنى عليه ألف لـ باء هو ان ألف نقلت باءً من العدم الى الوجود وهذا انما يتصور في حالــة كون باء مسبوقة بالعــدم أما أذا فرض ان باء كانت موجودة دائما ، ولم تكن معدومة في أي زمان فلا معنى لعلية ألف لها .

فهم في الحقيقة يرون ان النقص الذي صار منشأ لاحتياج الاشياء وارتباطها وتعلقها بغيرها هو العدم السابق أي العدم المقدم على الوجود زمانا ، في حين رأوا ان منشأ الاستغناء والاستقلال عن الغير هو القــدم وعدم وجود « سوء سابقة » عدميــة وعليه فمن وجهــة نظرهم يكون الموجود اما ناقصا ومحتاجا وحادثا ومرتبطا بالغــير او كامــلا ومستغنيا وقديما ومستقلا عن الغير .

الثانية

نظريــة قدماء الفلاسفــة المسلمين مثــل ابــن سينــا حتى عصر صدر المتألهين . وقــد أورد هؤلاء على نظريــة المتكلمين التي تجعــل الحدوث والعدم السابق مــلاك النقص والاحتياج والارتبــاط بالغير ، أوردوا اشكالات أساسية لا مجال هنا لذكرها ، اما نظريتهم هم فانهم

قالوا انه صحيح ان كل حادثة تحتاج للعلة ولكن ملاك الاحتيـاج في الحالات ليس حدوثـه وانما هو أمر آخر ، كما انه ليس (القدم) بـأي وجه ملاك الكمال وعدم الاحتياج والاستغناء والاستقلال .

وانما أدعوا ان مـلاك النقص والكمـال والاحتيـاج والغنى في الاشياء يجب أن يكمن في مرتبة ذاتها وما هياتها لا في سبقهـا بالعـدم وهو ما يسمـى (بالحـدوث) ، ولا في أزلية الوجود الـذي يدعـى (القدم) .

فان الاشياء في مرتبـة الذات ومن حيث الوجود على نحوين ، او انها تفرض على نحوين .

النحو الاول

ما كان الوجود عين ذاتـه أي ليس له ماهية غير الوجـود وبعبارة أخرى فان ماهيتها ووجودها شيء واحد .

والثـاني

ما كانت ذات الشيء امرا غير الوجود او العدم .

ونسمي النوع الاول واجب الوجود والنوع الثاني (ممكن الوجود) ولما كان واجب الوجود عين الوجود ولا معنى لان يخلو الشيء من نفسه بل محال أن لا يوجد وهو عين الوجود، لما كان كذلك فهو غني عن العلة اذ العلية عبارة عن أن تمنح العلة الوجود الذات المعلـول فاذا كانت ذات الشيء عين الوجود وليس فيها ـ من هذا الجانب خلأ مطلقـا فلا احتياج له للعلة . اما ممكن الوجود فانه نظرا لعـدم كونه غير الوجـود ولا عين العدم فهو متساوي النسبة اليهما ولا يقتضي احدهما فلديه خـلأ بالنسبة لهما ، ونظرا لذلك يحتاج الى شيء آخر يملأ ذلك الخلأ وذلك هو العلة ، فوجود العلل يملأ ذلك الخلأ في الوجود ويصبح ممكن الوجود بالذات

واجب الوجود بالغير ، في حين يملأ عدم العلة الخلأ الحاصل من جانب العدم ويعود ممكن الوجود بالذات ممتنع الوجود بالغير .

وقد أسمى الفلاسفة هذا الخلأ باسم (الامكان الذاتي) وهم يقولون : ان ملاك احتياج الاشياء للعلة هو (الامكان الذاتي) كما انهم يسمون ذلك (الملء) الوجودي باسم (الوجود الذاتي) .

فالحقيقة هي ان ذلك النقص الذاتي ـ الذي يجعل الموجودات ـ في نظر الفلاسفة ـ محتاجة وناقصة ومتعلقة بالغير هو (الخلأ الذاتي) وان ذلك الكمال الذاتي الذي هو منشأ كمال الموجودات والذي يجعلها غنية عن الارتباط بالغير هو (الامتلاء الذاتي) اي كون الذات عين الوجود .

وعليه ولما كان ملاك الاحتياج هو الخلأ الذاتي لا السابقة العدمية فلو فرضنا وجود موجود قديم في العالم بحيث لم يأت زمان كان فيه معدوما ولم يكن يتطرق اليه عدم زماني ولكنه كان ممكن الموجود فان مثل الموجود معلول ومخلوق ومرتبط بالغير وان كان أزليا وأبديا ويعتقد الفلاسفة بوجود مثل هذه الموجودات ويدعونها (العقول القاهرة) .

الثالثة

نظرية صدر المتألهين ومدرسته .

فصدر المتألهين يقبل ان كل حادث محتاج ويقبل ان كل ممكن الوجود محتاج للعلة ويرى ان اشكالات الفلاسفة على المتكلمين اشكالات واردة ، كما انه يقبل رأي الفلاسفة في انه لا مانع من كون موجود ما قديما زمانيا ودائم الوجود اي أزليا وأبديا ووجوده ـ في نفس الوقت ـ

مرتبط مخلوق ومعلول كما ارتضى رأي الفلاسفة في ان ملاك الاحتياج والارتباط يجب ان يبحث عنه في داخل الاشياء لا في العدم السابق ولكنه أثبت من جهة أخرى انه كما ان الحدوث لا يمكنه ان يشكل ملاك الاحتياج فان الامكان الذاتي وبتعبيرنا (الخلأ الذاتي) لا يمكنه ايضا ان يكون ذلك الملاك ، وذلك لأن الامكان الذاتي من أحكام الماهية . فالماهية هي التي يقال انها في مرتبة ذاتها متساوية النسبة الى العدم والوجود معا وانها جوفاء وخالية في داخلها ويجب أن يكون هناك غير يملأ هذا الفراغ ..

ولكن لما كانت الماهية أمرا اعتباريا لا واقعيا ولذا فهي خارجة من نطاق الاحتياج وعدمه والعلية والمعلولية والتأثير والتأثر بل من حريم الموجودية والمعدومية ، فلا يستطيع (الامكان الماهوي) أن يكون السر الاصلي للاحتياج للعلة ، فكل هذه الامور أي الموجودية والمعدومية والعلية والمعلولية والاحتياج وعدمه يمكن ان تنسب للماهية ولكن بالمجاز والعرض والفرض أي تنسب اليها بتبع الوجود الذي تنتزع منه الماهية وتعتبر ، فالاساس الاصيل للاحتياج الحقيقي يجب أن يكون في نفس الوجود .

وقد كان صدر المتألهين قد أثبت أصالة الوجود وأثبت معها التشكيك والمراتب في الوجود أي أثبت ان الوجود حقيقة لها مراتب . وعليه فكما ان الغنى ليس خارجا عن حقيقة الوجود ، فكذلك الاحتياج وكما أن الكمال ليس خارجا عن حقيقة الوجود فان النقص كذلك ، فحقيقة الوجود هي التي تقبل في داخلها والنقص والغنى والفقر ، والاحتياج وعدمه، والشدة والضعف والوجوب والامكان واللامحدودية والمحدودية ، بل هي عين كل هذه الامور .

وما هو الواقع ان حقيقة الوجود بما هو وجود وفي مرتبة ذاته

مساو للكمال والاستغناء وعدم الاحتياج والشدة والوجوب واللامحدودية اما النقص والفقر والاحتياج والامكان وأمثال ذلك فهي تنبع من التأخر من مرتبة الذات ومن المعلولية التي تلازم النقص .

وهكذا فان صدر المتألهين يرى ان مسألة الخلو الذاتي للماهية عن الوجود والاحتياج لشيء آخر يملأ ذلك الخلو صحيحه ولكن على أساس اصالة الماهية لا على أساس اصالة الوجود . فان نسبة الاحتياج والخلو الذاتي للماهية وان هناك شيئا آخر باسم العلة يملأ الخلو الذاتي لها نسبة تسامحية فلسفية ، اذ ان العلية والمعلولية والاحتياج وعدمه كلها من شؤون ما هو عين الواقع اي الوجود ، فسر احتياج وجود لوجود آخر هو القصور الذاتي والمحدودية الذاتية لذلك الوجود .

وعلى أساس من نظرية صدر المتألهين — وخلافا لنظرية المتكلمين وجمهور الفلاسفة — فان الاحتياج والمحتاج وملاك الاحتياج ليست أمورا منفصلة فهي جميعا هنا شيء واحد ، فان بعض مراتب الوجود بحكم قصورها الذاتي وتأخرها الذاتي عن المنبع الاصلي للوجود هذا البعض هو عين الاحتياج لمرتبة أخرى من الوجود .

ولما كان صدر المتألهين قد طرح مسألة (ملاح الاحتياج للعلة) بالنحو الكلاسيكي فقد اتبع أسلوب أمثال ابن سينا في ذلك ولكنه في مكان آخر يبين نظره في هذه المسألة بما يشكل نتيجة حتمية للاصول التي أسسها والتي لا يمكن أن تكون غير ذلك ، ولما كان الملا صدرا قد طرح المسألة وفق الاسلوب القديم فقد ظن المتأخرون واتباع مدرسته مثل المرحوم السبزواري ان صدر المتألهين ليس له نظرية مستقلة ، في حين اننا بينا هذا الامر — ولأول مرة — في حواشي (أصول الفلسفة) مما يفتح السبيل لاستفادة الآخرين من ذلك .

وعلى أي حـال : فان المسلـم به ـ بنـاء على أساس كـل هذه النظريات ـ ان سر الاحتياج للعلـة ليس مجـرد كونهـا (أشياء) او (موجودة) وان الاشياء ليست محتاجة للعلـة لأنها موجودة ، كلا فان الموجودية بدلا من أن تكون دليـلا على الاحتياج دليـل على الغنـى والاستقلال •

وهكذا تبين من مجموع ما قلناه أمران :

ألـف

ـ ان ما نقوله احيانا من (ان كل شيء او كـل موجود يحتـاج للعلة) أمر غير صحيح بل هو غلط فظيع ، فالتعبير الصحيح هو ان (كل ناقص يحتاج الى علة) وقد رأينا أن مذاهب مختلفة بحثت هذا الموضوع واختلفت أنظارها حول ملاك الاحتياج للعلة ولكن القدر المسلم هو ان كل ناقص يحتاج للعلة لا كل شيء سوآء كان ناقصا او كاملا •

بـاء

ـ توضـح ـ عبر هذا ـ تصورنا عن (العلة الاولى) •

وعلمنا ان (العلة الاولى) التي هي الذات القديمة الكاملة واجبة الوجود واللامتناهية ، انما كانت علة اولى لأن الوجود عين ذاتها ، وهي الوجود الكامل لا الناقص ، والوجود اللامحدود لا المحدود ليوجد فيها منشأ وملاك للاحتياج للعلة فليس معنى العلة الاولى هو انها علة نفسهـا ومبدعة نفسها ومؤسسة لهـا ، كما انه ليس معناهـا انها لا تختلف عن الاشياء الاخرى من حيث الاحتياج للعلة ولكنها خرجت عن قانون العلة بمقتضى استثناء معين •

ويمكن هنا ان يحصل سؤال آخر في ذهن بعض الافراد الذين لا تمرس لهم في مثل هذه المسائل وهو انه صحيـح ان العلة الاولى غنيـة

وغير محتاجة لاي تعلق لانها قديمة وكاملة ولا محدودة وواجبة الوجود، وان سائر الاشياء محتاجة ومتعلقة لانها ليست كذلك ولكن لماذا كانت العلة ألاولى علة اولى ؟ بمعنى انه لماذا كانت هي بالخصوص قديمة وكاملة ولا محدودة من بين جميع الموجودات ؟ ولماذا لم تكن حادثة وناقصة ؟ ولماذا لم يحز موجود آخر من الموجودات التي هي الآن ناقصة ومحتاجة على مقام واجب الوجود ؟

ولكن مع ملاحظة ما تقدم يتضح جواب هذا التساؤل فقد فرض في هذا التساؤل انه كان من الممكن ان لا يكون واجب الوجود واجب الوجود وتدخلت علة وجعلته واجب الوجود لا ممكن الوجود ، وكان من الممكن ان لا يكون ممكن الوجود ممكن الوجود ؛ ولكن على أثر تدخل علة خاصة صار ممكن الوجود وبتعبير آخر انه كان من الممكن ان يكون وجود كامل الذات اللامحدود وجودا ناقصا محدودا ؛ وان يكون وجود الناقص والمحدود ؛ كامل الذات لا محدودا ولكن تدخل عامل وجعل هذا كامل الذات لا محدودا وجعل ذلك ناقص الذات محدوداً .

ولكن المتسائل غير ملتفت الى ان مرتبة اي موجود هي نفس ذات ذلك الموجود تماما كما ان مرتبة أي عدد هي عين ذات ذلك العدد ؛ وعلى هذا فلو ان موجودا استغنى عن العلة بحكم الغنى الذاتي والكمال الذاتي ، فانه لا يمكن لأي علة أن يكون لها أي دخل فيه ، ولم توجده أي علة ، ولم تجعله أي علة في مرتبته التي هو فيها .

ان سؤال : لماذا صارت العلة الاولى علة اولى ــ وهو سؤال بقي بلا جواب في الفلسفة الغربية هو سؤال بلا معنى ، فان العلة الاولى موجوديتها عين حقيقتها وعين ذاتها وكونها علة اولى عين ذاتها وهي من كلا هاتين الحيثيتين غير محتاجة للعلة .

ان هذا السؤال هو تماماً كما لو قلنا : لماذا كان عدد الواحد واحدا ولم يكن اثنين والعدد الثاني ثانيا وليس واحداً ولم يحل محل عدد الواحد ؟!

وقد بحثنا بشكل أكثر تفصيلا في كتاب (العدل الالهي) حول موضوع (ان مرتبة كل موجود هي عين ذاته) وسوف لن نكرر البحث هنا .

وفي ختام هذا المقطع من البحث وجدنا ان من المناسب ان ننقل كلاما لبرآتراند راسل الفيلسوف المعاصر وذلك حول العله الاولى لنعرف تصوره الفلسفي حول هذه المسألة الغامضة .

فان لراسل كتابا صغيرا باسم « لماذا لم أكن مسيحيا ؟ » ولا يقصر انتقاده فيه على المسيحية بل يوسع من نطاقه ليشمل أساسا كل الافكار الدينية عموما وفكرة الالوهية بالخصوص والتي يقبلها بعض غير المعتقدين بالدين ايضا .

ومن جملة الاشكالات ـ في هذا الكتاب ـ نجده يشكل على (برهان العلة الاولى) ... ولأجل أن نعرف كيف تصور راسل هذه المسائل في ذهنه لننقل شيئا من أقواله ... انه يقول :

« ان اساس هذا البرهان عبارة عن ان كل ما نراه في هذا الكون له علة واذا تتبعنا سلسلة العلل فسوف نصل بالنهاية الى علة أولى وهذه العلة الاولى نسميها علة العلل او الله » .

ومن ثم يبدأ بنقده كما يلي :

« لم اكن ابان شبابي لافكر في هذه المسائل بعمق ، وكنت اقبل .

برهان علة العلل الى مدة من الزمن مديدة ، الى ان طالعتني جملة من كتاب كنت اتصفحه ـ وانا في الثامنةعشرة ـ وهو كتاب (الاتوبيوغرافية) لجان ستيوارت ميل ••• وكانت هذه الجملة تقول : (كان ابي يقول : ان سؤال : من الذي خلقني ؟ لا جواب له لانه ينطرح سؤال آخر بعده مباشرة وهو : من الذي خلق الله ؟)

وهكذا وضحت لي هذه الجملة ـ على بساطتها ـ كذب برهان علة العلل وما زلت اراه كاذبا ••• فاذا كانت العلة ضرورية لكل شيء فهي ضرورية لله ايضا • واذا امكن لشيء ان يوجد بلا علة فان هذا الشيء يمكن ان يكون هو الله او العالم • وسخف هذا البرهان انما هو لهذه الجهة بالخصوص » •

ولكن كلامنا نحن الذي مر وضح سخف كلام راسل هذا فليس الكلام انه هل يجب ان يكون لكل شيء علة او انه استثناء استطاع موجود ما ان يوجد بلا علة ؟ واذ امكن ان يوجد وجود ما بدون علة فما الفرق بين ان يكون هو الله او العالم ؟

وانما نقطة التركيز في الكلام هي ان كل شيء وكل موجود ـ من زاوية كونه شيئا وله ـ بنوع ما ـ وجود ، ليس فيه ملاك الاحتياج للعلة ولاملاك عدم الاحتياج ليقال ما الفرق بين الاشياء من هذه الجهة ، الا انه يوجد بين الاشياء والموجودات موجود هو صرف الوجود ، وهو الكمال المطلق ، وكل كمال منه واليه ، ولان وجوده عين ذاته فهو غير محتاج للعلة ـ خلافا للاشياء التي لها وجود مستعار من الغير ـ فان مثل هذا الموجود لا يفتقد الوجود ولا كمالات الوجود ليطلبها ويسعى نحوها ، بل لا يمكن ان يفقدها مطلقا •

ومن جانب آخر فانا نعيش في عالم كل شيء فيه له جهة موقتة وكل

شيء يسعى باحثا عن شيء آخر لا يملكه ، وكل شيء يفقد ما لديـه في وقت وآخر ، نعيش في عالم كل شيء فيـه في معرض الـزوال والفنـاء والتغيير ، وتبدو علائم الفقر والحاجة والاستعارة والاعتماد في نـاصية كل شيء وجزءا من اجزاء هذا العالم فلا يمكن اذن ان يكون هذا العالم علة اولى وواجب الوجود ، وهذا هو الاستدلال الابراهيمي الذي يعرضه القرآن الكريم في قوله تعالى « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والارض وليكون من الموقنين • فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا احب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لاكونن من القوم الضالين • فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هـذا اكبر فلما أفلت قـال : يا قوم اني بريء مما تشركون • اني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض حنيفا ومـا أنا من المشركين » •

وخلاصة الاستدلال هي انه يجد نفسه ــ وفق فطرته وبحكم البديهة العقلية ــ مربوبا ومقهورا ، فهو اذن في بحث دائب عن ربه وقاهـره ، واول ما يلفت نظره ، الكـوكب • ثم القمر ، ثم الشمس ولـكن بنظرة وملاحظة بسيطة يدرك آثار المربوبية والمقهورية فيها ايضا وهـي اشد الموجودات اشراقا وكان اهل عصر ابراهيم يعتبرونها مدبرة ومديرة لهذا العالم ، نعم يرى فيها وفي غيرهم علائم المخلوقية والمربوبية ••• وهنـا يتجه بقلبه وعقله نحو القدرة القاهرة التي هي (الرب المطلق) و (القاهر المطلق) الذي لا أثر فيه للمربوبية والمقهورية والحدوث والفناء والفقر • فهو يتعرف عن طريق انواع الفقر والفناء والحدوث والزوال والمربوبيـة والمقهورية ، على وجود ذلك القاهر الكامل •

التوحيد والتكامل :

ومن جملة المسائل التي كان لها تأثير كبير ــ في نظري ــ في ايجاد الدوافع نحو المادية مسألة توهم التضاد والتنافي بين « مبدأ الخلقة » من جهة ومبدأ الترانفوميسم اي « مبدأ التكامل ، وخصوصا تكامل الاحياء » من جهة اخرى • وبعبارة اخرى توهم ان (الخلقة) مساوية مع كون الوجود آنيا ودفعيا وان التكامل مساوق مع عدم وجود خالق للاشياء •

وما يعرضه لنا التاريخ هو ان الغرب بالخصوص كانت فيه بعض الافكار القائلة بان كون العالم قد اوجده الله يستلزم ان تكون جميع الاشياء ثابتة وبنمط واحد ابدا ، فلا يحدث اي تغيير في الكائنات

وخصوصا في اصول الكائنات اي (الانواع) فالتكامل اذن غير ممكن • وخصوصا التكامل الذاتي اي التكامل المستلزم لتغير ماهية الشيء ونوعيته ••

في حين ان المشاهد انه كلما تقدمت المسيرة العلمية وتوسعت ابعادها تثبت وتتبرهن مسألة التكامل في الاشياء وخصوصا الاحياء وانها تقطع خطا متصاعدا متكاملا • وعليه فان العلوم وبالاخص علوم الحياة ــ تخطو في الاتجاه المعاكس للالهية •

وكما نعلم فان نظريات لامارك ودارون ــ وخصوصا دارون ــ قد

اثارت ضجة كبرى في اوربا • فقد عرضت نظريات داروں على انها نظريات الحادية مائة بالمائة في نفس الوقت الذي كان فيـه دارون نفسه شخصا معتقدا بالله والدين ويقال انه كان يضم الكتاب المقدس الى صدره اثناء الاحتضار ـ وقد آكد هو ايمانه مرات عديدة •

وهنا يمكن ان يقال : ان الترانفوميسم بشكل عـام (والداروينية بشكل خاص وخصوصا فرضية داروين حول ان اصل الانسان من القرد وان كانت هذه الفرضية قد ردت بعد ذلك) انما اعتبرت الحاديـة لانها تخالف ما جاء في الكتب الدينية المقدسة ، فان الكتاب الديني عموما يؤكد ان خلق الانسان بدأ من انسان اول اسمه (آدم) ويظهر منها ان (آدم) خلـق مباشرة من التراب ، ولـذا فلم يكن باطـلا ان يعـرف داروين والداروينيون بل وكل انصار التكامل بانهم منكرون لله • اذ لا يمـكن خلق التلاؤم بين الاعتقاد بالدين والاعتقاد بمبدأ (التكامل) فلا بـد ان يختار احد المبدأين ويطرح الآخر •

والجواب هو :

اولا

ان ما بينته العلوم في هـذا المجـال لم يعـد ان يكـون مجـرد فرضيات تتغير دائما وتبطل وتحل محلها فرضيات اخرى ، وعليه فلا يمكن ان نعمل ـ على اثر هذه الفرضيات المتغيرة القلقة ـ على رفع انيـد على رد ما جاء في كتاب سماوي اذا كان قد بين بشكل صريح لا يقبل التوجيه ونجعل تلك الفرضيات المتبدلة دليلا على عدم صحة اصل الدين، وتكون عدم صحة الدين ـ بالتالي ـ دليلا على عدم وجود الله •

وثانيـا

فان العلوم قـد سارت في اتجاه التأكيد عـلى حصول التغيـيرات

الاساسية في الاحياء ، وخصوصا في المراحل التي تتغير فيها النوعية وتبدل الماهية على نحو الطفرة الفجائية ـ فلم تعد مسألة التغييرات البطيئة جداً واللامحسوسة والمتراكمة مسألة مقبولة ... وعندما عاد ممكنا ـ من وجهة نظر العلم ـ ان يطوي الطفل في يومه الاول ـ طريق مائة سنة فما المانع من ان يطوي الموجود في اربعين ليلة طريق مئات الملايين من السنين .

ولنفرض ان ما جاء في الكتب المقدسة يؤكد بصراحة ان آدم خلق مباشرة من التراب وبشكل يبين انه ملازم مع نوع من التأثير والتأثر في الطبيعة وقد جاء في بعض النصوص الدينية ان طينة آدم عجنت خلال اربعين يوما ، فمن يعلم ؟ ان من الممكن ـ ان كل المراحل التي تمر بها الخلية الحية بشكل طبيعي خلال المليارادات من السنين حتى تنتهي الى حيوان من نوع الانسان ، هذه المراحل طوتها في اربعين يوما طينة آدم الاول وفقا للشرائط غير العادية التي وفرتها لها يد القدرة الالهية تماما كما يقال من ان نطفة الانسان في الرحم تطوي خلال تسعة اشهر كل المراحل التي يقال ان الجدود الحيوانية للانسان قد طوتها في خلال مليارادت السنين .

وثالثا

فلنفرض ان ما جاء في هذه العلوم يتجاوز حدود الفرضية ويصبح قطعيا ـ من وجهة نظرها ـ ولنفرض ايضا ان من غير الممكن ان تتوفر الشرائط والظروف الطبيعية التي تمكن المادة من ان تطوي في ايام المراحل التي يجب ان تطويها بأبطأ من ذلك بكثير في شروط اخرى ، كما لنفرض ان العلم قطع بأن اجداد الانسان كانوا حيوانات معينة ، لنفرض كل هذا فانا نقول : أليست ظواهر النصوص الدينية قابلة للتوجيه ؟ اننا

اذا جعلنا القرآن الكريم ــ خصوصا ــ محور كلامنا ــ فسوف نجد ان يبين قصة آدم كنموذج . ولا يستفيد من كيفية خلقة آدم العجيبة لاثبات العقيدة الالهية وانما يركز عليها لبيان المقام المعنوي للانسان وبيان مجموعة من المسائل الاخلاقية وعليه فمن الممكن تماما لانسان يعتقد بالله والقرآن ان يحتفظ بايمانه هذا وفي نفس الوقت يوجه قصة آدم بتوجيه معين . فلدينا اليوم افراد معتقدون بالله والرسول والقرآن وهؤلاء يفسرون خلقة آدم في القرآن بتفسير ينطبق تمام الانطباق على ما جاء في العلوم الحديثة .

ولم يدع احد ان تلك النظريات تخالف الايمان بالقرآن ونحن ــ انفسنا ــ اذ نراجع الكتب التي تضمنت عرض تلك النظريات نجد انها تحوي بعض النكات الملفتة للنظر والتي تستدعي التأمل الفائق وان لم نقتنع بها تماما .

وعلى اي حال فليس من الانصاف حقا ان تجعل امثال هذه الامور ذريعة لانكار القرآن والدين فضلا عن انكار الله .

رابعا

لنفرض ان ظواهر الآيات الدينية لم تكن قابلة للتوجيه والتفسير الملائم ، كما نفرض انه ثبت علميا ان الانسان له نسب حيواني مما كان يدعو ــ فرضا ــ لانكار الكتب الدينية ولكن لماذا انكار الله ؟ فانه يمكن ان توجد اديان اخرى في العالم لا تصرح ــ كما صرحت التوراة بان اصل الانسان هو من التراب مباشرة . ثم ما هي الملازمة بين عدم قبول دين معين او عدم قبول الاديان كلها وبين عدم قبول الله ؟ هذا ونحن نجد دائما اناسا كانوا ولا يزالون يؤمنون بالله ولكنهم لا ينتمون الى اي دين .

ومن مجموع ما سبق علم : ان فرض التنافي بين مضامين الكتب الدينية ومبدأ التكامل لا يشكل ذريعة وعذراً للاتجاه نحو المادية . وانما يكمن سر الامر ـ في الحقيقة ـ في ان الماديين الاوربيين تصوروا ان فرضية التكامل لا تنسجم مع المسألة الالهية عقلا منطقا ، سواء كانت منسجمة مع الدين ام لم تكن ولهذا كانوا يؤكدون اننا اذا قبلنا مبدأ التكامل انتفت مسألة الايمان بالله .

ولهذا فنحن الآن ندخل في هذا البحث لنعرف انه هل يوجد اي تناف بين المسألتين ـ عقلا ومنطقا ـ ام لا وانما كان قصور المفاهيم الفلسفية في اوربا هو الذي انتج تصور هذا التنافي ؟

وعلى اي حال يجب ان نعرف الاسلوب الذي فرض معه الماديون وجود مثل هذا التنافي ؟

وهنا نقول انه يمكن ان نعرض كلامهم بنوعين من العرض :

احدهما

انه بظهور نظرية التكامل سلب الالهيون اهم دليل لديهم فان عمدة ادلة الالهيين على وجود الصانع العليم الحكيم هو النظام المتقن في العالم . ان هذا النظام المتقن يبدو بوضوح وبالخصوص في الاحياء اي النباتات والحيوانات . وكان الاستدلال عن طريق النظام المتقن في الموجودات صحيحا لانه لم يمكن من المقبول عقلا ان يوجد موجود ما دفعة بدون ان تكون وراءه قدرة مدبرة مع انه مزود بمجموعة كبرى من التشكيلات الدقيقة التي تظهر ان هذا التنظيم والترابط قائم على اساس اهداف خطط لها بدقة . الا انه لو كانت خلقة الموجودات تدريجية وحاصلة في طول الزمان اي في خلال مئات الملايين من السنين بالنحو الذي تتغير فيه الاجهزة شيئا فشيئا مع توالي القرون وتراكم الاجيال حتى تصل

الى الحال الذي نجده عليها ، فانه لا مانع من ان لا يوجد من قبـل اي تخطيط او استهداف ، اي لا مانع من عدم فرض قوة مدبرة مشرفة على مسيرة هذا الكائن بل نفترض ان انواع الصدفة ومحاولة التلاؤم الجبرية مع الظروف هي التي شكلت منشأ لهذه الانظمة والتشكيلات •

وعليه فلو قبلنا وثبتت لدينا نظرية (التكامل) فان عمدة دليـل الالهيين ينهدم وهذا بنفسه كاف في ترجيح كفة الماديين فيميـل البعض للطرف المادي •

الا ان هذا التوجيه في حد ذاته ليس صحيحا • اذ لو عرض هـذا الكلام على مدرسة الهية حية لاجابت ـ في الحال ـ بانه •

اولا

ليس دليل اتقان الصنع هو الدليل الوحيد على وجود الله ، كما انه من المبالغة ان يقال انه عمدة الادلة على وجوده تعالى •

وثـانيا

فان نظام الخلقة لا ينحصر في بناء الاجهزة الداخلية للحيوانات ليقال ان التكامل التدريجي للاحياء كاف في اعطائها تفسيرا صرفتيا •

وثالثـا

فان المهـم والجـواب الاساسي عـلى هـذا الاشكال هـو ان الظهـور التدريجـي والتغيـيرات التصادفيـة للبنـاء التكويني فـي النبـاتات والحيوانـات لا يمكنه بـأي حـال ان يفسر مثـل هـذا الاتقان والدقة المتناهية في اجهزتها ذلك ان التغييرات الاعتباطية انما يمكنها ان تشكل تفسيرا كافيا لهذا الاتقان والدقة ـ في حالة افتراضنا ـ انـه

على أثر صدفة عمياء ، او نشاط غير هادف ، او يستهدف شيئا غير ما حصل من نتيجة ، على اثر ذلك يحصل تغيير تصادفي في بناء الكائن الحي فمثلا يحصل غشاء بين اصابع رجل الوز ، وهذا التغيير التصادفي ينفع للسباحة ثم ينقل الحيوان هذا التغيير بالوراثة الى الاجيال التالية ويبقى قائما فيها .

في حين انه اولا ان علم الوراثة يتردد كثيرا في مجال انتقال الصفات المكتسبة والفردية الشخصية ، وخصوصا (المكتسبة) بل انه ينكر الانتقال .

والثاني

فانه ليس كل الاعضاء والجوارح والتشكيلات شبيها بغشاء الوز فغالبا ما نجد ان كلا من الاعضاء يشكل جزءا من جهاز منظم مترابط معقد مثل جهاز الهضم وجهاز التنفس ، والجهاز البصري ، والسمعي وغيرها فان كل من هذه الاجهزة يحوي نظاما دقيقا مترابطا ما لم توجد كل اجزائه لا تترتب النتائج المرجوة منه فمثلا الاغشية البصرية ليست هي بحيث اننا نفترض ان لكل منها عملا مستقلا للبدن وان كلا منها وجد في البدن خلال ملايين من السنين ، وانما العين بكل اغشيتها وسوائلها واعصابها وعضلاتها ــ وهي من حيث كثرتها وتنوعها وتنظيمها وتشكيلها نظام محير عجيب ــ تقوم بمجموعها بعمل واحد دقيق . وهكذا فليس من المقبول حقا ان تكون التغييرات التصادفية ولو خلال مليارات السنين قد اوجدت بالتدريج الجهاز البصري او السمعي او غيره .

ان مبدأ التكامل يثبت اكثر من ذي قبل وجود القوة المدبرة الهادية في وجود الموجودات الحية ويبين بوضوح (الغائية) في الكون وداروين نفسه عندما تحدث حول اصل التوافق مع البيئة ابدى نظره بشكل قيل له بانك تتحدث حول هذا المبدأ كمبدأ يستمد من ما وراء الطبيعة .

والحقيقة هي كذلــك بالضبط فان قوة التوافق والتلاؤم مــع البيئــة والظروف في الاحياء ـ وهي قوة مجهولة جدا ومحيرة ـ هذه القوة قوة غير مادية وتنبع من عالم ما وراء الطبيعة فهي مسخرة لنوع مــن الهداية والشعور بالهدف وليست ـ باي حال ـ قوة عمياء وبلا هدف .

ودلالة مبدأ التكامل على وجود غيبي متصرف في امر العالم لا تقل عن دلالة اي مبدأ آخر .

وسر كون داروين وكذلك الكثير من علماء الاحياء بعده موحــدين والهيين هو ذلــك . فان الاصول والقوانين الطبيعية مــن قبيل التنازع للبقاء ، الوراثة ، انتخاب الاصلح ، التطابق مع البيئة « اذا فسر على انه مجرد رد فعل طبيعي عادي اعمى في قبال المحيط » كل هذه القوانــين لا يمكن باي وجه ان تفسر لنا خلقة الموجودات الحية النباتية والحيوانيــة .. وطبيعي اننا لا نقول انهم رأوا ان هذه القوانين غير لازمة ولذا فانهم رجعوا للقول بالوجود الدفعي الآني ولكن نقول انهم رأوا انها لا تكفي في تفسير تلك الخلقة .

والحقيقة هي ان السر في جعل نظرية التكامل نظرية ضد الاستدلال الالهي بدليل (اتقان الصنع) على وجود الله يكمن في ضعف الاجهــزة الفلسفية الالهية ، فبدلا من ان تجعل هذه الاجهزة ظهــور القول بمبدأ التكامل مؤيدا للمدرسة الالهية فقد تلقت هذا المبدأ شيئا ضد المــدرسة الالهية بعد ان فرضت ان الموجودات وخصوصا الاحياء لو انها تكــاملت خلال ملايين السنين فانه سوف لن يكون اتقان الصنع دليلا على وجــود قوة مدبرة شاعرة وان من الممكن ان تنتج التصادفات العمياء المتكررة مثل هذا الاتقان .

ثم انه علاوة على مثل هذه النظرة عن مبدأ التكامل وانه يضعــف

دليل الالهيين • فان هناك عاملا آخر سبب ان ينظر الى مبدأ التكامل على انه ضد الفكر الالهي مما ولد رواجا قويا للفكر المادي • وهذا العامل هو انهم افترضوا انه لو قبلنا وجود الله وجب ان تكون الاشياء قد وجدت وفقا لتصميم مسبق بمعنى ان وجودها قد خطط له قبلا في العالم الالهي ثم خلقت بالارادة والمشيئة الالهية القاهرة •

والتخطيط والتصميم القبلي يلازم عدم اي دخل للصدفة في البين، اذ الصدفة ضد التصميم والتنبؤ القبلي ، فالامر التصادفي هو الامر الذي لم يتنبأ به من قبل ولم ينتظر ولم يكن مما يقبل التنبؤ •

ولكننا نعلم ان للصدفة دورها الكبير المهم في خلق الكائنات فاننا اذا قلنا ان الصدفة لا تكفي لخلق الاشياء فانه لا يمكننا انكار وجودها ودورها المؤثر • فمثلا نفس الارض التي هي مهد الاحياء • كانت قطعة انفصلت عن الشمس على اثر صدفة وهي قرب الشمس الى كرة سماوية كبيرة ووقوعها تحت تأثير جاذبيتها •

فاذا كان هناك في البين تصميم قبلي ، وحسب الاصطلاح تقدير أزلي فانه لم يكن للصدفة مجال لتؤدي اي دور مطلقا •

فالنتيجة هي انه ان كان هناك وجود الهي فان الاشياء توجد طبق تصميم قبلي ، وتنبؤ سابق لها في العلم الازلي الالهي ، واذا كانت الاشياء قد صمم لها في العلم الازلي الالهي لم يكن هناك اي صدفة في البين ، ولان للصدفة دورا مؤثرا في الخلقة فالنتيجة هي ان خلق الاشياء لم يكن مقرونا بتصميم قبلي ، ولانه لم يكن مقرونا بتصميم قبلي فليس هناك وجود الهي في البين •

علاوة على هذا اذا كانت الاشياء قد وجدت بالارادة والمشيئة الازلية

فمن اللازم ان تكون وجدت آنا ودفعة ، لان ارادة الله مطلقة وبلا مانع وغير مشروطة ، ولازم كون ارادة الله مطلقة وبلا مانع وغير مشروطة ان يوجد اي شيء يريده بدون اي فاصل متصور • ولهذا جاء في الكتب الالهية انه « انما امره اذا اراد شيئا فانما يقول له كن فيكون » فاذا كان العالم وموجوداته قد وجدت بمقتضى الارادة والمشية الالهية يلزم ان يوجد العالم من الاول بالشكل الذي ينتهي آليه اي بآخر صورة كاملة متصورة له •

وتيجة هذين البيانين ــ اللذين كان احدهما يرتبط بالعلم الازلي والآخر بالمشيئة الازلية ــ هي انه لو كان هناك اله في العالم فان هناك علما ازليا وبمشية ازلية ، ومقتضى العلم الازلي وكذلك مقتضى المشيئة والارادة الازلية هو ان توجد الاشياء دفعة واحدة •

والجواب انه لا العلم الازلي يؤدي الى دفعية الوجود ولا الارادة الازلية وانه لم يطرح حتى الالهيون في العالم او الكتب الدينية هذه المسألة بهذا النحو •

فلقد جاء في الكتب المذهبية الدينية ان السماوات خلقت في ستة أيام •• وايا كان المراد من الايام الستة أهي الدورات الست ، او الايام الربوبية الستة التي كل يوم منها يعادل ألف سنة او الايام العادية التي تساوي ستة منها ١٤٤ ساعة ؟ ايا كان الامر فانه يفهم منها التدرج • ولم بطرح الالهيون مطلقا المسألة بهذا النحو فيقال ان العلم الازلي او الارادة الازلية او المشيئة الالهية المطلقة تستوجب ان تكون السموات قد خلقت في لحظة وآن واحد فلماذا نجد ان الكتب الدينية تصرح بانها خلقت تدريجا وخلال زمان معين ؟

وكذلك القرآن الكريم يعرض الخلقة التدريجية بكل صراحة

ويعتبرها دليلا على معرفة الله . فلم يقل احد لحد الآن ان لازم العلم الازلي والمشيئة الازلية ـ التي ان تعلقت بشيء قالت له كن فيكون ـ هو ان يتكون الجنين في لحظة واحدة .

هذا من زاوية نظر الكتب الالهية اما من الزاوية الفلسفية : فان ما قيل من انه لا اثر للصدفة او التصادف يحتاج الى توضيح ذلك انه ـ من وجهة نظر الفلاسفة ـ ليس هنالك شيء اسمه صدفة او تصادف او اعتباط اما ما يسميه الناس صدفة فهو في الواقع ليس بصدفة مطلقا ، ولا تفاوت من حيث الماهية بينه وبين سائر العلل والمعلولات والمقدمات والنتائج ابداء

فكلمة الصدفة تستعمل في موردين : احدهما في مورد حصول حادثة بدون علة فاعلية ، اي ان تفرض حصول ظاهرة لم تكن ثم حصلت بنفسها وبدون تأثير اي عامل ومثل هذا النوع من الصدفة مردود من قبل كل الاتجاهات الاعم من الالهية والمادية . فان الماديين ايضا لا يقبلون مثل هذا الغرض في خلق العالم . ومثل هذا النوع خارج فعلا عن محل بحثنا ابضا ، فان الذين يدعون ان تغييرات شكل وبناء الحيوانات كانت بنحو الصدفة لا يقصدون هذا النوع .

والمورد الثاني لاستعمال هذه الكلمة هو ان يفرض حصول نتيجة من مقدمة معينة ليست هي مقدمة لتلك النتيجة فتحصل النتيجة من مقدمة ليست هي نتيجتها بل هي نتيجة طبيعية لمقدمات اخرى لم توجد بعد .

فمثلا اذا ركبت سيارة في طهران وقصدت طريق مدينة قم وبعد ساعتين او ثلاث وصلت الى قم فانك لن تقول تحركت بالسيارة في هذا الطريق ووصلت الى قم صدفة اذ اللازم الطبيعي لهذا السير الوصول الى قم ولكنك اذا كانت لك صداقة قديمة مع شخص ثم لم تره بعد ذلك الى

سنين عديدة وعندما كنت متجها الى قم لم تكن ابدا تفكر فيه او في البحث عنه ولكنك حين وصلت الى محطة من محطات الاستراحة في الطريق فاوقفت السيارة الى جانب المقهى ودلفت الى الداخل لتستريح وجلست الى جنب منضدة بعد ان وجدت كرسيا فارغا ... وما ان رفعت رأسك حتى وجدت فجأة صديقك القديم الذي لم تره منذ عشرين سنة والذي علمت انه كان في شيراز ـ التي تقع قم بينها وبين طهران ـ وقد تحرك منها صوب طهران وقد لجأ الى هذه المحطة ليرفع شيئا من تعبه للحظة وها قد تواجه معك ... فانه في مثل هذه سوف يقول كل منكما : لقد التقينا صدفة في طريق طهران وقم . والذي جعلكما معا تعتبران هذا اللقاء صدفة هو ان هذا اللقاء ليس ملازما عاما للطبيعة الكلية للحركة من طهران الى قم ومن قم الى طهران . والا للزم ان يحصل تحت اي ظرف واي زمان واي شرائط تتحرك فيها من قم الى طهران مع انه ليس كذلك. وانما هذا السفر فقط والذي كان سفرا خاصا من زمان خاص مقرونا بشرائط خاصة هو الذي انتج هذه النتيجة ، ولهذا لم يكن هذا السفر منتظرا ومتوقعا لا من قبلك ولا من قبل صديقك ولا من قبل اي شخص آخر مثلك ، واذا كنت قد صممت من قبل على تنفيذ خطة معينة في سفرك فانك لم تكن لتستطيع مطلقا ان تأخذ بعين الاعتبار هذا اللقاء في هذه النقطة في حين انه كان يمكنك ان تأخذ بعين الاعتبار الامور التي هي من اللوازم الطبيعية للحركة بين قم وطهران اما اذا غضضت نظرك عن الطبيعة الكلية للحركة من طهران الى قم وقصرت النظر على تلك الحركة الخاصة التي قمت بها في زمان خاص وشرائط خاصة وتصورتها وهي محفوفة ومقرونة بمجموعة من الظروف والاوضاع والحوادث الاخرى ، فانك سترى ان ذلك اللقاء مع الصديق في تلك النقطة المعينة وفي تلك اللحظة المعينة لم تكن صدفة ابدا بل كان ضروريا طبيعيا ونتيجة قهرية

لحركتك من قم وانه كان من الممكن للمطلع على احوالكما انت وصديقك ان يتنبأ بهذا اللقاء .

وهكذا يكون هذا اللقاء صدفتيا من زاوية من ينظر للطبيعة الكلية للحركة من طهران الى قم ، ومن الطبيعي إن الطبيعة الكلية لهذه الحركة لها سلسلة من آللوازم المحدودة وما يخرج عن حدود هذه اللوازم المحدودة يعتبر ــ من هذه الزاوية ــ امرا تصادفيا ولكن الموجود ليس الطبيعة العامة فحسب بل يوجد علاوة عليها الشرائط والضمائم وبانضمامها يحدث ذلك التصادف .

فاللقاء في الطريق إنما يكون تصادفيا عند الشخص المحدودة معلوماته بحدود الطبيعة الكلية للحركة من طهران الى قمم واما من زاوية نظر من له اطلاع على ذلك وعلى الشرائط والضمائم وسائر الارتباطات العلية والمعلولية فان ذلك الامر ليس صدفتيا ابداً .

وهنا نتعرض لمثال آخر ليتوضح كيف ان التصادف نسبي اي هو بالنسبة لمن لم يطلع على مجموع الاسباب والعلل يعتبر صدفة دون ذلك المطلع عليها فانه لا يعتبر بالنسبة اليه تصادفيا .

ولنفرض شخصين عضوين في دائرة حكومية واحدة فهما يستلمان الاوامر من مركز واحد ، واحدهما وهو (أ) موظف في خراسان مثلا والآخر وهو (ب) موظف في اصفهان ، ويصدر الامر من العاصمة لالف ان يتحرك الى نقطة معينة اصيبت بكارثة في يوم معين للقيام بعمل معين ، وبعد مدة يصدر الامر لـ (باء) كي يتحرك الى نفس النقطة في نفس اليوم للقيام بوظيفة معينة وحينذاك فمن الطبيعي آن يلتقي الرجلان في ذلك المحل ويكون هذا الالتقاء التقاء صدفتيا فيقول كل منهما : لقد التقينا

في اليوم الفلاني في النقطة الفلانية صدفة اذ ان كل منهما اذا لاحظ طبيعة عمله لم يجد ان لازم ذلك ان يلتقيا كما يرى أن هذا اللقاء لم يكن يقبل التنبؤ به من قبل اي منهما • اما من زاوية نظر المركز الذي وجه الماسوريتين اللتين يبدو انهما لم تكونا مرتبطتين ، فان اللقاء ليس صدفة باي وجه فالمركز الذي اوجد هذا المسير من اصفهان الى تلك النقطةوذلك المسير من خراسان الى تلك النقطة ايضا ونظم الامر بحيث يصل كل منهما في يوم معين الى تلك النقطة ، هذا المركز لا يمكنه ان يقول « لقد ارسلت الشخصين وقد صادف ان التقيا في نقطة واحدة » كلا فان لقاءهما بالنسبة لهذا المركز امر طبيعي قهري •

وعليه فالتصادف والاتفاق امر نسبي بمعنى انه تصادف بالنسبة لغير المطلع وليس كذلك بالنسبة للمطلع على الحوادث والاوضاع والشرائط الخاصة •

وعليه نقول انه ليس في الواقع اي مجال للصدفة والاتفاق وهذا معنى ما يقال : من انه « يقول الاتفاق جاهل السبب » •

ومن هنا يعلم انه بالنسبة لذات الباري « تعالى » وفي الحقيقة يجب ان نقول انه من حيث الواقع ونفس الامر لا مجال للصدفة فما يقال من انه (اذا كنا نؤمن بالله وجب ان نقبل آن حوادث العالم كانت وفق تصميم قبلي وقابل للتنبؤ وانه لا تصادف ولا اتفاق في البين في حين ان العلوم اثبتت دورا مهما للتصادف والاتفاق » هذا القول كلام فارغ لا معنى له •

اما مسألة الارادة الازلية والمشيئة الازلية •

فان هذا الاشكال او هي من الاشكال السابق • فمن العجب حقا

هذا التصور اي تصور ان لازم القول بالمشيئة المطلقة الازلية هو وجود كل المخلوقات بشكل دفعي آني ! نعم انه اشتباه عظيم ! ان لازم المشيئة والارادة المطلقة هو ان يوجد كل شيء كما يريد وبالشكل الذي يشاء بلا اي مانع او رادع وان لا يكون هناك اي فاصل بين ارادته تعالى والشيء المراد لا ان اللازم هو ان يوجد الشيء المراد دفعه اي ان يكون دفعي الوجود . وتوضيح ذلك :

انه لما كانت اراداتنا ومشيتنا ناقصة محدودة فاذا اردنا شيئا وجب ان تتوسل اليه بالاشياء الاخرى ، وما لم تحصل هذه الاشياء والاسباب لم يكن هناك اي تأثير لارادتنا كما انه يجب ان نرفع مجموعة من الموانع ومع وجودها فلا تأثير لارادتنا ايضا ؛ اما الله فلانه تعالى محيط بالجميع وكل شيء بارادته ، فالاسباب والوسائل وزوال الموانع كلها وليدة ارادته ومشيته وليس يوجد في المرتبة التي تكون فيها رادته هي الحاكمة اي شيء في قبالها بعنوان شرط او سبب او مانع اذ كل الشروط والاسباب والموانع وزوالها هي في ما دون الارادة ومحكومة وتابعة لها ، فكل ما يريده يكون كما يريد بدون اي ترديد او توقف .

فاذا كان وجود شيء موقوفا على سلسلة من الشرائط فيمكننا ان نقول من زاوية ذلك الشيء انه مشروط بشرائط معينة ولكن ليس من الصحيح ان يقال ذلك من زاوية الارادة الالهية ، فليست ارادة الله مشروطة بشيء اذ ارادة الله تعلقت به وبشرطه ، وهو يكون قد وجد بلا اي توقف بالنحو الذي أريد .

فمعنى كون الارادة الالهية مطلقة هو انه كلما اراده الله يحصل بالنحو الذي اراده عليه ، بدون ان يكون اجراء ارادته متوقفا على امر وراء الارادة . وعليه فاذا اراد الله ان يوجد الشيء بشكل دفعي وآني

وجد كذلك ، وان اراده ان يوجد بشكل تدريجي وجد ذلك الشيء بشكل تدريجي • فالامر اذن يرتبط بنحو وجوده والشكل الذي اراده الله ان يوجد عليه فاذا تعلقت ارادة الله ومشيئته وحكمته بان توجد الاحياء بشكل تدريجي تسلسل وخلال مليياردات السنين فان هذه الموجودات ستوجد بالطبع على هذا النحو • فغلط اذن ان نقول ان لازم المشيئة الالهية المطلقة هو ان يكون كل شيء دفعي الوجود • كلا فان لازم المشيئة الالهية المطلقة هو ان يوجد كل شيء بالنحو الذي اريد له سواء كان ذلك النحو دفعيا او كان تدريجيا بلا اي توقف على امر في ما وراء ارادة الله تعالى •

علاوة على هذا فان الفلاسفة اثبتوا ان الامور التدريجية الوجود ينحصر نحو وجودها بالوجود التدريجي اما النوع الآخر من الوجود وهو الوجود الثابت والدفعي فهو محال عليها •

وقد اثبت صدر المتألهين نوعا من الحركة اسماها « الحركة الجوهرية » وبناء على هذا الاصل فليس هناك اي امر ثابت في الطبيعة ولا يمكن ان يوجد مثل هذا الشيء الثابت فيها فكل شيء في الطبيعة تدريجي الوجود ولا يمكنه ان يكون الا كذلك ، هذا الفيلسوف ــ وهو من العارفين الالهيين ــ لم يخطر بباله قط أن يأتي اناس في هذا العالم ويرون ان لازم العلم الازلي الالهي او المشية الازلية الالهية هو ان توجد الاشياء دفعة وقد كتبنا قبل سنين مقالا تحت عنوان « التوحيد والتكامل » في المجلة العضلية « مكتب تشيع » وبينا فيه سبل اشتباه فلاسفة الغرب في تصورهم التضاد بين التوحيد ومبدأ التكامل •

ازليـة المادة :

وكذلك فان من جملة انماط القصور في الفلسفة الغربية تصورهـا ان القبول بازلية المادة ينافي الاعتقاد بالله في حين انهم مسألتان لا ترتبطان ببعضهما اي ارتباط .

كتب احد العلماء الروس في مقال ترجم الى الفارسية ونشر فـي المجلات قبل سنين ، يقول ان ابن سينا كان يتردد ويضطرب بين المـادية والمثالية .

ولكن لماذا يبدي نظره هكذا حول ابن سينا في حين نجـد ان احد مشخصات ابن سينا هو انه سار على اسلوب واحد في عقائده وآرائه فلا يرى اي تذبذب وتناقض في كلماته ، ولربما اعانته ذاكرته القوية جـدا وغير العادية على ان لا ينسى افكاره فشكل ذلك احد علل هذه الخاصية اي خاصية الاسلوب الواحد المتقن .

ولكن هذا العالم الروسي رأى من جهة ان ابن سينـا يقول بازلية المادة ولا يرى للزمان بداية فظن انه مادي ومن جهة اخرى رآه يتحـدث عن الله والخلق والعلة الاولى فظن في نفسه ان ابن سينا مثالي وهكـذا تردد في نظره بين المادية والمثالية ولم تكن له عقيدة ثابتة في هذا المجال .

والذي دفع هذا العالم الروسي لان يكون هـذه الصورة عن ابن سينا هو انه تصور التنافي بين نظرية ازلية المادة مع كونها مخلوقة وكون العالم جميعا مخلوقا .

في حين انه في منطق ابن سينا الذي طرح مسألة (مناط الاحتيـاج للعلة) وجعله هو (الامكان الذاتي) لا (الحدوث) ، في هذا المنطق لا مجال لاي تناقض بين المسألتين . وهذه المسألة تحتاج الى توضيح اكثر لا نرى فعلا المجال له .

اللـه والحرية

هناك مسألة مشهورة في علوم الفلسفة والكلام عرفت باسم (الجبر والاختيار) وتبحث حول كون الانسان مجبوراً في اعماله فلا حرية له او انه حر مختار :

كما ان هناك مسألة اخرى باسم (القضاء والقدر) . ويعني القضاء والقدر الحكم القطعي الالهي في ماجريات الاعمـال في العالم وحدودها ومقاديرها ويبحث فيها عن عمومية القضاء والقدر الالهيين وشموليتهمـا لكل الاشياء والحوادث وعدم ذلك . وانهما لو كـانا عامـين فما مصير الحرية الانسانية ؟ وهل يمكن ان يكونا عامين مع الاحتفاظ بدور للانسان في اعماله بكل حرية واختيار ؟

والاجابة على هذه الاسئلة هي بالايجاب ذلك اننا بحثنا في كتـاب (الانسان والقدر) فاثبتنا عدم وجود اي تناف بين عموميـة (القضاء والقدر) الالهيين من جهة والاختيار والحرية الانسانية من جهة اخرى . ولم يكن ذلك ـ بالطبع ـ بدعا ـ من الافكار او يقال لاول مرة وانمـا اقتبسنا ما قلناه من القرآن الكريم ، وقد استفاد ذلك ايضا من قبلنـا آخرون وخصوصا كبار الفلاسفة المسلمين الذين وفوا هذا البحث حقه .

والآن نجد في اوربا افرادا من مثل (جان بول سارتر) قد ضاعوا في تعقيدات هذه المسألة ولما لم يستطيعوا التوفيق فانهم انكروا الله بعد ان ركزوا على الحرية الانسانية : يقول سارتر : « لاني اعتقـد وأؤمن

بالحرية ، فاني لا استطيع ان اكون مؤمنا معتقدا بالله ، لانـه لو قبلت الله فلا محالة من قبول القضاء والقدر . ولو قبلت القضاء والقدر لـم يمكني ان اختار حرية الفرد ، ولاني اريد اختيار الحرية واؤمن واعتقـد بها فلست مؤمنا بالله » .

واذا ركزنـا على وجهة النظر الاسلاميـة رأيناها تعتبر الاعتقاد والايمان بالله مساويا مع كون الانسان حرا مختارا ، وان الحرية بمعناها الواقعي هي الجوهرة الانسانية الاصيلة .

اذ نجد القرآن الكريم في نفس الوقت الذي يؤكد فيه على عظمـة الله بكل معاني العظمة ويصر على عمومية ارادته ومشيئته ، يدافع بقـوة عن الحرية فيقول :

« هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا . انا خلقنا الانسان من نطفة اشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا انا هدينـاه السبيل اما شاكرا واما كفورا » (١) .

وواضح ان هذه الآيات تؤكد حريته في اختيار الطريق المستقيم او اختيار طريق الكفر بالنعمة .

ويقول القرآن الكريم ايضا .

« من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصليها مذموما مدحورا . ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فاولئك كان سعيهم مشكورا ، كلا نمد هؤلاء وهـؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا » (١) .

---

(١) سورة الدهر الآيات ١ ـ ٣ .
(١) سورة الاسراء الآيات ١٨ ـ ٢٠ .

نعم هذا هو منطق القرآن الذي لا يرى اي تناف بين القضاء الالهي العام والحرية والاختيار الانساني .

وهذا ما اثبت بالنظر الفلسفي البرهاني في محله وقد بحثنا حوله الى حد ما في رسالتنا (الانسان والقدر) ولكن فلاسفة القرن العشرين تخيلوا انهم لن يكونوا احرارا الا اذا رفضوا الله ، وذلك ايضا مبتن على اساس انهم في هذه الحالة يمكنهم ان يفصلوا ارادتهم على الماضي والحاضر (التاريخ والبيئة) ومن ثم وبمثل هذه الارادة المنفصلة عن تاريخها وبيئتها يحاولون اختيار مصيرهم ومستقبلهم !

هذا في حين انه لا ترتبط مسألة الجبر والاختيار كثيرا بمسألة قبول الله او نفيه . اذ مع قبول الله تعالى يمكن الاعتراف بالدور الفعال الحر لارادة الانسان كما انه مع رفض القبول ايضا يمكن وفقا لمبدأ العلية العام ان نعترض على فرضية حرية الانسان اذ ان جذور الجبرية او توهم الجبر هي الاعتقاد بنظام العلية والمعلولية القطعي الذي يعتقد به كل من الالهي والمادي في آن واحد فلو لم تكن هناك منافاة بين النظام القطعي العلية والمعلولية وبين الحرية الانسانية والارادة الانسانية ــ كما هو الواقع ــ فالاعتقاد بالله لا يسبب انكار الحرية .. وتفصيل الموضوع يتم ــ الى حد ما ــ بمراجعة كتاب (الانسان والقدر) .

كل هذا الذي عرضناه يعبر ــ بنماذجه ــ عن عدم نضج المفاهيم الفلسفية ــ وخصوصا ــ في الفكر الغربي .

عدم نضج المفاهيم الاجتماعية والسياسية

ويعتبر عدم نضج بعض المفاهيم الاجتماعية والسياسية ثالث العلل التي دفعت للالتجاء للمادية •

فنحن نطالع في تاريخ الفلسفة السياسية انه متى ما طرحت مفاهيم اجتماعية وسياسية خاصة ، وعرضت مسألة الحقوق الطبيعية وبالاخص مسألة الحكم ، فان عدة من انصار الاستبداد السياسي لم يعترفوا بأي حق لجماهير الشعب في قبال الحكم ، فليس لها الا ان تطيع وتخضع •

ولاجل تثبيت هذا الاستبداد وتقوية اسس نظرياتهم السياسية المستبدة التجأ هؤلاء الى مسألة (الله) وأدعوا ان الحاكم مسؤول فقط امام الله لا غير •

ومن هذا الجانب فانه ستحدث ملازمة ـ بالطبع ـ في الاذهان بين الحكم الشعبي الحر من جهة وانكار الله من جهة اخرى ، كما تحدث ملازمة بين الاعتقاد بالله والاعتقاد بلزوم التسليم في قبال الحاكم وعدم وجود اي حق يتدخل بموجبه اي شخص في اعمال من اختاره الله لرعاية الامة وحفظها وجعله مسؤولا امام الله فقط •

كتب الدكتور محمود صناعي في كتاب (حرية الفرد وسلطة الدولة) يقول : في اوربا كانت مسألة الاستبداد السياسي وان الحرية ـ اصلا ـ للدولة لا للافراد ، تعتبر توأما لمسألة الايمان بالله » •

فقد كان الافراد يظنون انهم ان قبلوا الله كان عليهم ان يقبلـوا استبداد القدرات المطلقة ايضا ، وان الفرد لا حق له قبالة الحاكم مطلقا ، وأن الحاكم غير مسؤول ايضا بأي وجه امام الفرد بل هو مسؤول امـام الله فقط . فقبول الله في ظنهم يعني قبول حالة (خنق الحرية) في حـين انهم ان ارادوا التحرر كان عليهم انكار الله ، وبالتالي فقد رجحو الحرية.

على انا اذا استعرضنا وجهة نظر الفلسفـة الاجتماعية في الاسلام فسوف نجد ان الاعتقاد بالله لا يبعث مطلقا نحو قبول الحكم الاستبدادي المطلق وعدم مسؤولية الحاكم امام الشعب بل انها تعتقد ان الاعتقاد بالله لوحده هو الذي يستطيع ــ لوحده ــ ان يجعل الحاكم مسؤولا في قبال الوظائف الاجتماعية ويمنح الافراد حقوقهم ويجعل المطالبة بالحقوق أمرا شرعيا ملزما .

فهذا امير المؤمنين (ع) القائد السياسي الاجتماعي والامام المعصوم والمعين من قبل الله تعالى يتحدث مع الناس في فتنة صفين فيقول :

« اما بعد فقد جعل الله سبحانه لي عليكم حقا بولاية امركم ولكـم علي من الحق مثل الذي لي عليكم ... ولا يجري احد الا جرى عليه ولا يجري على احد الا جرى له ولو كان لاحد ان يجرى له ولا يجرى عليه لكان ذلك خالصا لله سبحانه دون خلقه لقدرته على عباده ولعدله في كـل ما جرت عليه صروف قضائه »[1] .

وهذا النص يؤكد على ان الحق متبادل فكل من استفاد منه كانت عليه مسؤولية في قبال ذلك .

فالمفاهيم الدينية ــ من وجهة نظر الاسلام ــ كانت تساوق الحرية

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٢٠٧ .

دائما على العكس تماما مما حدث في اوربا ــ وفق نقل الدكتور صناعي ــ حيث كانت المفاهيم الدينية تعني الضغط وخنق الحريات الامر الذي لا ينتج سوى هروب الافراد من الدين وسوقهم للمادية ومعاداة الــدين والله وكل شيء له صبغة الهية •

وهناك علل ثلاث اخرى للاتجاه نحو المادية ينبغي ان تذكر هنا وهي متوفرة بيننا وبين المسيحيين وترتبط بالاسلوب التبليغي او العملي الذي اتخذه اتباع الاديان في الماضي او الحاضر •

وهي كما يلي : ــ

ـ ابداء النظر من قبل غير الاخصائيين ـ

هناك ظاهرة نلمحها بسرعة عند مطالعة احوال الناس اذ نجدهم يمنحون لانفسهم الحق في ابداء النظر في مختلف الامور •

وللمثل فان الامور الطبية ـ قديما ـ كانت من هذا القبيل فما أن يشكو احد من ألم في منطقة معينة حتى تنهال عليه اجتهادات الناس المختلفة وكل يبدي وجهة نظره في تعليل المرض واثاره وعلاجه فوجهات نظرهم محفوظة تجاه هذه الظاهرة المرضية ، واذا ما كان لهؤلاء نوع من النفوذ او كان المريض يتصف بحالة من التبعية لهم فانهم يجبرونه على استعمال وصفتهم الطبيعة القطعية النتيجة •

اما الذين يفكرون بان ابداء النظر في الامور الصحية والطبية يحتاج الى تخصص معين ومن ثم دراسة نوعية المرض ، ومعرفة الدواء بعد ذلك فان هؤلاء قليلون وما زلنا نلمح هذه الظاهرة في مختلف الحقول •

وهكذا كان الحال في المسائل الدينية وما زال قائما • فكل يمنح لنفسه الحق في ابداء نظره فيها في حين انها وبالخصوص المسائل الالهية والتوحيد تعتبر من اعقد المسائل العلمية التي لا يملك كل احد حق ابداء النظر فيها •

صحيح ان اساس المعرفة الالهية الذي يجب معرفته والايمان به امر

فطري بسيط واضح الا اننا اذا تقدمنا في البحث خطوة اخرى فانا سنواجه بحث الصفات والاسماء والافعال الالهية والقضاء والقدر الالهي ويتعقد الامر حينذاك حتى ليعبر الامام امير المؤمنين (ع) عنه بأنه « بحر عميق ... »

نعم ان المعرفة العامة والاجمالية لله تعالى امر فطري سهل ولكل ان يستدل عليه ويصل اليه . اما معرفة صفات الذات الالهية والتحقيق فيها فليس امرا يمكن لكل احد القيام به والحال اننا نرى ان الكل يعتبرون انفسهم من اهل النظر في مثل هذه الامور فيتحدثون عن صفاته تعالى مثلا بكل سهولة .

وليست هذه الظاهرة مختصة بامة دون غيرها بل هي في كل الامم فقد قيل ان قسيسا أراد أن يثبت الغائية في الكون وبيان الهدفية في النظام وان الكون يسعى نحو هدفه بكل دقة وان الله تعالى حكيم عليم مريد ـ وهو امر ليس اثباته بصعب فكل موجود دليل على ذلك ـ فماذا فعل ؟

لقد ذكر الخطوط التي نشاهدها على قشرة ثمرة (البطيخ) مثالا على ذلك وذكر ان علة وجود مثل هذه الخطوط المنظمة هي اننا متى ما أردنا ان نقسم البطيخة بين افراد العائلة وجدنا تقسيما طبيعيا خطط من قبل مما يهيء لنا سبيل العدالة في التقسيم ويمنع من تنازع الاطفال وعلو الضجيج !!

ولنذكر بعد هذا مثالا من واقعنا فانه يقال ان شخصا عنون هذا السؤال (لماذا اعطى الله تعالى للطيور اجنحةوحرم الابل منها ؟ ثم اجاب: ان الحكمة في ذلك انه سوف لن تبقى لنا حياة اذا امتلكت الابل اجنحة ! اذ سيطير الجمل ليحط على بيوتنا الطينية فيسلمها للخراب .

وقد سئل آخر عن دليله على وجود الله تعالى فاجاب (ما لم يكن هناك شيء ، لم يقل الناس فيه اشياء) .

وهكذا فضعف الحجج التي يسوقها الجاهلون غالبا في ما يرتبط بالحكمة الالهية والعدل الالهي ، والقضاء والقدر الالهيين ، والارادة والمشيئة الالهيتين ، والقدرة الكاملة ، والجبر والاختيار ، وحدوث العالم وقدمه ، والقبر والبرزخ والمعاد والجنة والنار والصراط والميزان وغير ذلك ، ضعف هذه الحجج وظن المستمعين ان هذه الحجج هي تعاليم دينية اصيلة وان هؤلاء قد بلغوا الى اعماق تلك التعاليم كل ذلك يعتبر من الموجبات الكبرى للجوء نحو المادية .

فما اشد الرزية حين يرى المطلع احيانا بعض الافراد البعيدين عن مناهل معرفة المدرسة الالهية والمدرسة المادية واصولهما ، وقد استفادوا من الحالة السائدة في الاساليب التبليغية الدينية بما فيها من هرج وفوضى ، فراحوا يكتبون في (الرد على المادية بشكل ليس فيه الا الخيال المنسوج وما لا طائل تحته وبديهي ان مثل هذه الاساليب في التبليغ تؤدي حتما الى نتائج هي في صالح المادية بلا ريب .

ويمكننا هنا ان نعين الكثير من الكتب المؤلفة على هذا المنوال !

ـ العبادة او الحيـاة ـ

لا بد هنا من مقدمة يتوضح من خلالها الغرض فنقول :

انه لا يمكن للانسان ان يتنصل من غرائزه التي غرست في اعماقـه لتجره الى هدفه الذي خلق من اجله • ولا نعني بهذا ان على الانسان ان يتبع الغرائز اتباعا اعمى وبشكل تام ، وانما نعني انه لم تخلق في اعماقه هذه الغرائز عبثا ، وانه لا يمكن غض النظر عنها او اهمالها او معارضتها والصراع معها دائما • نعم يجب ان تهذب ويمتلك الانسان دفة المـوقف الذي تعمل فيه الغرائز وقيادتها وهذا امر آخر •

فمثلا يوجد في الانسان ميل طبيعي للاولاد ، وليس هذا امرا بسيطا بل هو من اروع مظاهر الخلقة الالهية • اذ لو لم يوجد هذا الميل لم تـدم سلسلة الوجود الانساني ••• منتهى الامر اننا نجد ان هذا الميل قد صب ـ في مصنع الخلقة ـ في اعماق كل حيوان بنحو يبعث على اللذةوالشوق اللذان ينتجان ان يكون كل جيل في خدمة الجيلاللاحق له في نفسالوقت الذي تكون فيه لهذه الخدمة لذة معينة •

ولم يغرس هذا الميل في الجيل السابق فقط وانما هو كذلك فـي الجيل اللاحق بالنسبة للجيل السابق وان لم يكن بنفس المستوى مـن الشدة •• وهذه العلاقات هي رمز التلاحم الاجتماعي •

وكما سبق فانه لا يمكن الصراع مـع امر طبيعي وغريزي بمعنى

تعطيله عن العمل دائما ... ذلك ان بعض الغرائز قد يعطل الى زمان ما وبالنسبة لبعض الاشخاص الا اننا لا يمكن ان نصرف الانسانية تماما عن مقتضيات بعض الغرائز وبصورة دائمة .

ومن جملة هذه الغرائز غريزة البحث عن الحقيقة وطلب المعرفة والاستطلاع . فانه يمكن ان نصرف الناس في زمان ما وبصورة مؤقتة عن التحقيق والعلم والاستطلاع ، ولكن لا يمكننا دائما ان نكبت روح البحث عن الحقيقة وطلب العلم .

كما ان من جملة الغرائز غريزة حب المال فهي وان لم تكن امرا مستقلا برأسه بمعنى ان يحب الانسان المال للمال وانما لانه بالطبع والغريزة يطمح لقضاء حوائجه المادية في حياته حيث يتوقف قضاء الحوائج في بعض المجتمعات ــ كمجتمعنا نحن ــ على المال والثروة فاذا امتلكه امتلك مفتاح حل المشاكل والا فالابواب موصدة ولهذا فهو يحب المال كمنفذ الى تحقيق احتياجاته وحل مشاكله المرتبطة بالجانب المادي في حياته .

ولا يمكن ــ طبيعة ــ الوقوف بوجه هذا الميل الطبيعي نحو المال ومعارضته دائما . وان امكن الى مدة وجيزة فهو لا يمكن دائما نعم ... لا يمكن ان نقنع الجميع ليرضوا ــ والى الابد ــ ان تسد امامهم كل الابواب ، ومن ثم نطلب منهم الابتعاد عن ذلك المفتاح السحري بعنوان انه امرء قبيح ومنفر .

فاذا عارضنا هذه الغرائز باسم الدين واعتبرنا التجرد والانعزال والرهبنة امرا مقدسا ، والزواج امرا قبيحا ، وبنفس العنوان اعتبرنا الجهل موجبا لخلاص الانسان والعلم سببا للضلال ، وهكذا نظرنا الى

الثروة والقدرة عـلى انها السر الاساسي للشقاء في حـين اعتبر الفقر والضعف والعجز اساس السعادة !! اذ كانت نظراتنا على هذا النمط فما الذي يتوقع له ان يحدث بعد ذلك ؟

فلنلق نظرة على الانسان وهو يقع تارة تحت جاذبية الدين وتعاليمه بالشكل الآنف ، وتجذبه غرائزه تارة اخرى اليها فيظل قلقا بينهما وعليه ان يختار احد الامرين او يعيش القلق والاضطراب فيصبح مـن اولئك الذين قال فيهم الشاعر الفارسي .

يكدست بمصحفيم ويكدست بجام
كه نزد حلالیم وكهي نزد حرام

اي ترانا نحمل المصحف في يد والكأس في الاخرى فنحن تارة عند الحلال واخرى عند الحرام .

فنفسيتهم حينذاك نفسية مذبذبة فهم لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ... وهـم معرض للامراض النفسيـة بكل لهذه الامراض من عوارض وآثار .

فلا يمكن ــ اذن ــ محو الغرائز حتى باسم الدين كما انه ليست رسالة الدين محو الغرائز وانما تعديلها وتهذيبها وامتلاك ازمتها وهدايتها نحو العمل الطبيعي المطلوب .

وطبقا لهذه الحقيقة الآنفة فان من المتوقـع حقا ان نجد المجتمعات التي حوربت فيها الغرائز تحت اسم الدين وجعلت السعادة فيها والعبادة امرين متضادين لا يمكن جمعهما ــ نجدها تتمة نحو المادية ، وتروج فيها المدارس الالحادية اللادينية بعد ان تنهزم امامها تلك التعاليم .

لهذا يجب ان يقال ـ بلا ريب ـ ان هؤلاء (الزهاد !) الجهلة ـ وهم موجودون عندنا الى حد ما مع الاسف ـ يعتبرون ـ اينما كانوا من العوامل الهامة للجوء الناس للمادية •

يقول راسل : « ان تعليمات الكنيسة تجعل البشرية بين أحد شقاءين وحرمانين ، فاما شقاء الدنيا والحرمان فيها من النعم واما شقاء الآخر • والحرمان من حورها وقصورها » هكذا يصور لنا راسل هذه التعليمات الكنسية التي تلزم الانسانية في تحمل احد الشقاءين اما شقاء الدنيا والحرمان والانزواء في قبال نعم الآخرة ، واما شقاء الآخرة اذا لم يشأ الانسان الحرمان من نعم الدنيا •

والملاحظ ان بعض المتزهدين ـ عندنا ـ يمتلكون نفس المنطق لسوء الحظ • واول تساؤل يواجه هؤلاء هو من ناحية نفس عقيدة التوحيد والمعرفة الالهية اذ يقال لهم :

لماذا يلزم الله الانسانية بتحمل احد الشقاءين ؟ ولماذا كان الجمع بين السعادتين مستحيلا ؟ وهل ان الله بخيل ـ والعياذ به ـ ؟ وهل تنقص خزائنه ؟ وما المانع من ان يريد لنا خير الدنيا والآخرة ؟

ولو كان الله موجودا بكل كماله وعلائه وجوده وقدرته اللامتناهية وجب ان يريد لنا السعادة الكاملة ، ولو ارادها فهو يريد سعادة الدنيا والآخرة معا •

ولقد كان راسل احد الذين ألمتهم بشدة هذه التعاليم الكنسية ويمكن ان يكون لها الاثر الفعال في لجوئه للالحاد واللادينية •

ثم ان اولئك الذين روجوا لهذه الفكرة ـ او يروجون ـ تخيلوا

ان الدين يحارب البهجة والسعادة وان الله اراد ان يكون الانسان شقيا في الدنيا ليصبح سعيدا في الآخرة ومن هنا فقد حرم الخمر والميسر والزنا والظلم وغيرها لانها امور تجلب السعادة للانسان ، في حين ان الامر على العكس من ذلك تماما اذ كل النواهي والحدود المقررة في الشريعة انما هي لاجل كون هذه الامور وامثالها من موجبات الشقاء وتفي السعادة في هذه الحياة ، فاذا امرنا ــ تعالى ــ بترك شرب الخمر فهذا لا يعني اننا ان شربناها سعدنا في هذه الحياة السعادة التي تتنافى مع سعادة الآخرة . وانما لاجل ان الخمر توجب شقاء الدنيا والآخرة معا ولذا منعنا عنها . وهكذا كل المحرمات بمعنى انها لو لم توجب الشقاء (حتى في هذه الدنيا) لما كانت محرمة .

وكذلك الحال في مجال الواجبات اذ صارت واجبات لضرورتها لسعادة الانسان بمعنى ان لها تأثيرها الايجابي الخير في الحياة الدنيا ايضا ، لا انها وجبت لتمنع بعض لذائذ الدنيا .

والقرآن الكريم ــ بكمال الصراحة ــ يوضح فوائد الواجبات ومصالحها ومضار المحرمات ومفاسدها فمثلا نجده يبين في آيتين معطيات الصلاة والصوم فيقول: « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ »[1] . ويقول حول الصوم « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »[2] .

وتعني ان عليكم ان تصلوا وتصوموا لكي تتقوى روحيتكم وتزاد

---

(١) سورة البقرة الآية ٤٥ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٣ .

عنها الاخلاق السيئة اذ الصلاة والصوم نوع من الأعمال والممــارسات التربوية التي تمنع عن الفحشاء والمنكر ٠

فلم تجعل المسائل المادية ـ في هذه التعاليم ـ غير متنافيــة مــع المسائل المادية فحسب بل جعلت المسائل المعنوية وسيلة من وسائل التلاؤم مع الجو الاجتماعي السعيد ٠

وهكذا علمنا ان بعض التوجيهات غير الواقعية لبعض المبلغين اوجبت ان يفر الناس من الــدين ويجعلوا الله والدين سببا مــن اسباب شقائهم ـ والعياذ بالله ـ ٠

البيئة الاخلاقية والاجتماعية غير الملائمة

ويعتبر الجـو الروحي والاخلاقي غير الملائم لفكرة المعرفة الالهيـة وعبادة الله عاملا آخر من عوامل الانحراف نحو المادية ، اذ تستلزم هذه الفكرة والعبادة نوعا من التعالي الخاص •

ان الهذرة التي تنمو في الاراضي الطيبة بشكل جيد ، تفسد وتموت في الاراضي الفاسدة المالحة •

فاذا كان الانسان ماديـا شهويا في عمله ، غارقـا في عبـادة المادة والشهوات ذ‌نه بصورة تدريجية ستنسجم اراؤه وافكاره مع البيئـة الروحية الاخلاقية هذه وفقا لمبدأ التلاؤم مع المحيط • ويعني ذلـك ان الافكار السامية للمعرفة الالهية ، والعبادة الالهية والمحبة الالهية تمنـح مكانها للافكار الماديـة السافلة فيصبح الكون في نظره مجرد عبث ولغو فلا حساب ولا كتاب في عمل هذا العالم فلنغتنم هذه اللحظات ولو بأتفه الامور •

ذلك ان كـل فكرة تحتاج للارضية المساعدة لتنمو وتبقى تمامـا كالبـذرة التي يراد لها ان تنمو في ارض معينـة • فقـد ورد في بعض النصوص الدينية انه لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب او صورة كلب •

واذا قلنا بتأثير الجو الروحي غير الملائم فقد يتساءل عن تأثير الجو

الاجتماعي كيف يكون ؟ فنجيب بانا ذكرنا العلة المباشرة كما انه لا شك في ان للجو الاجتماعي دخلا في البين ولكن تأثيره غير مباشر حيث ان له تأثيراته الفاسدة على الجو الروحي الذي يعيق بفساده نمو الافكار السامية ويتلاءم اكثر مع نمو الافكار السافلة . ومن هنا نجد الاهتمام الاسلامي الشديد بمسألة اصلاح الجانب الاجتماعي ، كما ولهذا السبب نجد الايدي المأجورة الكافرة والمنحرفة تعمل جهدها على تهيئة الارضية المساعدة للفساد الاخلاقي والعملي لاجل انتزاع الفكر الراقي من الامة وتضعيفه بشتى الوسائل التي يملكونها لتلويث المحيط الاجتماعي .

ولتوضيح تأثير الجو الروحي غير الملائم في صنع الانحراف وخلق الاتجاهات المادية ينبغي ان نرجع الى ما قلناه سابقا من ان المادية ماديتان : عقائدية واخلاقية . وتعني المادية الاخلاقية : ان يكون الشخص معتقدا بما وراء الطبيعة ولكنه يسلك في حياته سلوكا ماديا لا ينسجم مع معتقده والمادية الاخلاقية ــ كما تقدم ــ هي احدى موجبات المادية العقائدية .

وبعبارة اخرى فان الفرق في الشهوانية واللامسؤولية ، يشكل احد موجبات الاتجاه الفكري المادي . فالمادية الاخلاقية لا تقوم الا على اساس عبثية الحياة وليست الحياة الدنيا الا صبابة يجب ان تغتنم في مجالي اللذة وليس له فيها أي وجهة نظر اخلاقية .

وهكذا يمكن ان تتصور شخصا الهي العقيدة ولكن عمله لا يعبر عن عقيدته فهو مادي العمل ، كما يمكن ان يكون الشخص مادي العقيدة في حين ترى حياته طيبة بعيدة عن التصنع والظلم والتجاوز .

فانفكاك المادية الاخلاقية عن المادية العقائدية وان كان ممكنا وواقعيا بكثرة الا انه ليس ظاهرة عامة يمكن ان تجعل أساسا لحكم معين،

ذلك لان الانفكاك حالة غير طبيعية ولن تدوم حالة تخالف الطبيعية والسير الطبيعي الاسباب والمسببات فيحصل التلاؤم بالتالي بين السلوك والعمل والعقيدة بأن يغلب احد الطرفين الآخر اما الفكر او العمل • فقد يضحي بالفكر في سبيل العمل وقد يكون العكس •

ومن هنا فيبعد جدا ان يقضي شخص ما عمره آلهي العقيدة مادي السلوك ولا بد ان يتغلب احد الجانبين على الآخر فاما الى هذا الاتجاه او الى ذاك •

كما ان ذلك الشخص الذي يعيش المادية فكرا وايمانا والنزاهة عملا سيرجع أراد ام لم يرد ، قرب العهد ام بعد فيصبح الهيا اذا كان يعيش عالما اخلاقيا نزيها اللهم الا ان تنغلب النزاهة العملية الى تلوث مادي اخلاقي •

ان هذين الشكلين من المادية ــ الاخلاقية والعقائدية ــ يشكلان علة ومعلولا لبعضهما كنمط من انماط التأثير المتقابل فكل منهما يؤثر في الآخر ويتأثر به •

فترى المادية الاخلاقية تنشأ تارة أثر المادية العقائدية • وذلك عندما ينتهي تفكير الانسان الى ان هذا الكون لا يمتلك هدفا معينا وليس فيه أي ادراك او شعور او تعقل ، وان الانسان خلق نتيجة للصدفة وعلى اساس من العبث ، وان صحيفة الانسان ستغلق بعد موته، وعندئذ سيفكر مثل هذا الانسان المادي عقائديا في ان يغتنم الفرصة لاشباع اللذة ولا معنى للتفكير في الحسن والقبح واتلاف العمر فيذلك.

ان اسلوب اللاهدفية الكونية في التفكير لا بد وان ينتهي للمادية العقائدية خصوصا اذا لاحظنا ان مثل هذا النمط من التفكير يظل يعذب

الانسان عذابا شديدا لا يمكنه ان يتحمله فترى مثل هؤلاء غالبا ما يريدون الفرار من انفسهم اي من افكارهم اللاسعة لوجودهم لسع الافاعي ويلجأون الى ما يبعدهم عنها ويلقي بهم في عالم النسيان من المخدرات والمسكرات وعلى الاقل يلجأون لمجالس اللهو والطرب والفاحشة لاجل نسيان انفسهم وافكارهم بالتدريج غارقين في المادية الاخلاقية .

وليست علة انتهاء المادية العقائدية الاخلاقية منحصرة في انها ـ وبصورة منطقية ـ تزلزل اسس الاخلاق التي تتحكم بالعفاف والتقوى ، فلا يبقى مبرر لغض النظر عن اللذائذ المادية وانه ما ان يرتفع الحاجز المعنوي للافكار الالهية حتى تندفع الشهوات في تأثيرها الجامح، بل ان هناك علة اخرى في البين وهي ان الافكار المادية حول العالم والحياة والخلقية تضع الانسان في عذاب وضغط دائمين ، وتخلق فيه حالة الميل الى الفرار من هذه الافكار والالتجاء لما يوجب النسيان من مثل مجالس اللهو والفاحشة والمخدرات والمسكرات فتأثير هذه الافكار ليس بأقل من تأثير جاذبية اللذات المادية .

وعكس هذه الحالة ممكن ايضا بمعنى انه كما تنجز المادية العقائدية الى المادية الاخلاقية فان المادية العملية الاخلاقية تنجر في النهاية الى المادية العقائدية ، وكما ان الفكرة والرأي يؤثران في الجانب الاخلاقي والعملي ، فان الاخلاق والعمل ايضا يؤثران في التفكير وصياغة الرأي وهذا هو ما عنيناه حين عنونا هذا الفصل بـ (البيئة الاخلاقية والاجتماعية غير الملائمة) .

وهنا قد يتساءل عن العلاقة بين العمل والفكر مع انهما أمران مختلفان ويمكن أن نفترض انسانا يفكر بنمط معين ويتمدد في تفكيره

من خلال اطر ثابتة الا ان عمله واخلاقه لا يطابقان أسسه الفكرية بل يسلكان سبيلا آخر • الا اننا نقول في مقام الجواب : ان الايمان والاعتقاد ليس فكرا مجردا جافا يشغل حيزا معينا من الذهن ولا يرتبط مع سائر جوانب الوجود الانساني • صحيح انه يوجد كثير من الافكار التي لا ترتبط بالعمل مثل الافكار الرياضية وبعض المعلومات الطبيعية والجغرافية الا ان بعض الافكار ما ان توجد في الذهن الانساني وبحكم ارتباطها مع مصير الانسان حتى تمد نفوذها الى كل جوانب وجوده وتتحكم بها ، كما تستتبع هذه الأفكار افكارا اخرى مترتبة عليها ومحونة لحظ سير الانسان •

ان ذلك يشبه تماما ما نقل من ان طفلا طلب منه استاذه ان يتلفظ بـ (ألف) كبداية لتعليمه الحروف الابجدية ، فرفض أن يقول ذلك وعندما سئل عن سبب الرفض علله بأن قول (ألف) لا يسد باب السؤال بل يفتحه على مصراعيه اذ سيطلب منه ان يقول الحرف الثاني والثالث وهكذا فلماذا لا تقطع المسألة بادىء الامر •

ويقول الشاعر الفارسي سعدي :

دل كفت مراعلم لدني هوس است

تعليم كن اكرترا دسترس است

كفتم : كه (ألف) • كفت : دكر ؟ كفتم : هيج

درخانه اكر كسست يك حرف بس است

وينقل فيه حوارا بينه وبين قلبه اذ يطلب منه القلب أن يعلمه عند الامكان العلم اللدني لشوقه اليه فيقول له : (ألف) فيرد القلب بأنه ثم

ماذا فيجيبه : لا شيء ويعلل ذلك بقوله « يكفي حرف واحد لمعرفة من في الدار ان كان فيها ديّار » .

والمسألة الالهية هي من هذا القبيل تماما اذ ما ان ينطق الشخص بـ (الالف) حتى يتطلب منه الامر أن يتبعها بـ (الباء) وهكذا يسري في أبجدية المعرفة .

وعندما يذعن الانسان بوجود الله يذعن ايضا بأنه عالم السر والخفيات والقادر المطلق الحكيم المطلق ، ولا مجال للعبث في خلقه وعمله وبالتالي فلا بد من أن يكون هناك هدف من خلقة الانسان فلا عبثية فيها .. وهذا يستتبع بالطبع التساؤل عن حدود الحياة وهل تقتصر على هذه الدنيا وان تفكيره يدور في اطارها او ان هناك حياة ووظيفة اخرى ؟ وهل عين الخالق للانسان تكليفا ام لا ؟ وان كانت هناك واجبات وتكاليف فما هي ؟ وكيف يجب ان يسلك الانسان في الحياة على ضوئها ؟

هذا هو حرف (الالف) الذي لا يترك الانسان الا أن يسلّم له كل وجوده بمعنى أن هذا هو الخط الذي يرسمه حرف (الالف) الالهي للانسان .

وعلى هذا فان المعرفة الالهية تحتاج للجو الروحي والعملي المساعد ولو لم يوجد مثل هذا الجو فان نفس الجذور الاصيلة يصيبها الجفاف والفناء تماما كالبذرة التي توضع في رحم الارض فهي تنمو وتترعرع ان صادفت الجو المساعد والا فاما أن تيبس او أن تؤثر في محيطها غير الملائم ـ ان كانت قوية ـ فتجعله مساعدا لها .

ان التوحيد يقتضي ارضية روحية مساعدة للتعالي ، ليعمل هو على

ترجيح كفة الروح ليجعلها منسجمة مع الاهداف الحياتية الكبرى ولهذا نجد القرآن الكريم يتحدث كثيرا عن القابلية والطهارة والاستعداد فيقول مثلا « هدى للمتقين » و « لتنذر من كان حيا » .

ومن زاوية اخرى نلاحظ أن أنماط العصيان الاخلاقية والعملية تهبط بالروح من مقامها السامي ولذا فمن الطبيعي أن يتصارع هذا الفكر وهذا العمل كقوتين متضادتين .

وهذا المعنى لا يأتي فقط في المفاهيم الدينية المقدسة وانما هو حاصل في كل مفهوم مقدس وان لم يكن دينيا فان الشرف والشهامة والشجاعة الروحية لا تنمو عند كل احد وهكذا العزة والحرية وطلب العدالة وحب البشرية ، اذ كل هذه تسير في الانسان الشهواني نحو الاضمحلال على العكس من الانسان المضحي اذ تتنامى فيه .

ومن هنا نجد المجتمع المائل نحو الشهوات تموت فيه السجايا الانسانية ويعود الانسان فيه غارقا في خضم الاخلاق السيئة وهذا هو السبب الاصيل ـ في الواقع ـ لانهيار المجتمعات والحضارات .

وأكبر مثل تاريخي على هذا الامر قصة سقوط اسبانيا المسلمة ، فان الكنيسة لم تستطع رغم كل جهودها أن تنتزع اسبانيا من المسلمين فوضعت خطة دقيقة جدا سلبت المسلمين فيها التعالي الروحي وعودتهم على اتباع الشهوات وسلبتهم الغيرة والشرف ومن ثم سلبتهم سيادتهم واستقلالهم واخيرا قضت على دينهم وعقيدتهم تماما .

وهذا هو ما دفع الاولياء المخلصين لله لأن يغضوا عن اللذات ويترفعوا حتى عن المباحة الحلال أحيانا لئلا تصيدهم حبائلها بعد أن

علموا ان الانسان متى ما أنشد الى اللذة فقد التعالي الروحي فضلاً عن ابتلائه بحالة انشداد بالذنب نفسه .

من كل هذا نستنتج ان احدى علل الانحراف نحو المادية هي البيئة غير المساعدة على التعالي والتسامـــي . وقد عبر عن هذا في النصوص الاسلاميـــة بأن الانسان اذا أذنب فان الـــذنب سيؤثر في ظلمـــة القلب وسواده .

وبعبارة اخرى

فان العمل الاسود يوجد القلب الاسود ، والقلب الاسود ينتهـــي الى العمل الاسود .

« ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوء أي ان كذّبوا بآيات الله » .

ـ موقع البطولة والنضال ـ

العلل التي مر ذكرها كان بعضها يرتبط بالتاريخ فلا دور لها فعلا في خلق الانحراف وكان بعضها الآخر عللا عامة لا تختص بعصرنا الحاضر •

أما اذا ركتز على الانحرافات التي حدثت في عصرنا نحو المادية رأينا ان للمادية في هذا العصر نوعا ما ـ جاذبية خاصة وان لم تصل في شدتها الى جاذبية المادية في القرنين السابقين حيث ارتبطت بالثقافة والفكر والعلم • وقد رأينا ان عدم نضج المفاهيم الكنسية والفلسفة الاوربية كان له أثره في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في خلق موجة مبنية على انه : اما العلم واما الدين والله ، ولكن لم يمض طويل وقت حتى تلاشت تلك الموجة وتوضح سخف مدعاها •

والناحية الخاصة في الجاذبية المادية في عصرنا هي انها اتخذت لنفسها صفة (الثورية ومعاداة الاستعمار) •

وقد استقر في بعض النفوس وخصوصاً الشباب ـ على اختلاف في الشدة والضعف ـ أن الانسان اما أن يكون الهيا مسالما طالبا للعافية متقوقعا جامدا واما ان يكون ماديا متحررا ومناضلا معاديا للاستعمار والاستثمار والاستبداد !

اما لماذا وجدت هذه الفكرة طريقها الى أذهان الشباب ؟ ولماذا

اقترنت المادية بهذه الخاصـة في حين اقترنت الالهيـة بتلك ؟ ومن أين يستفاد ذلك من المادية او من الدين ؟!

فان جواب ذلك واضح ، اذ لا يلزم عند هؤلاء ، ان يستنبط ذلك من تعاليم كل من المبدأين ولا ربط للشباب بهذا الاستنباط المنطقي ذلك انه يرى شيئا واحدا يكفيه للاستنتاج ! انه يرى ان الثورات والصراعات في كل مكان يقودها الماديون اما الالهيـون فهم على العمـوم في الطرف الساكن الجامد ! ان هذا يكفي دليلا ومحفزا للطبقة الشابة كي تستنتج تلك النتيجة وتحكم ضد المبدأ الالهي مؤيدة المادية •

ولا مجال لانكار حقيقة ان الجزء الهـام من الصراع البطولي ضد الاستبداد والاستعمار في الحال الحاضر يقوده أناس لهم ميول ماديـة ــ ان قليلا او كثيرا ــ ولا ترديد في انهم يشغلون مواقع البطولـة الى حد كبير فهم الى حد معين قد خصوا أنفسهم بخاصية مقارعة الاستعمار والنضال ضده • كما انه يجب الاعتـراف بأن الحماس للمفاهيم الدينية في عصرنا قد قل •

واذا أدركنا مدى الردود التي يحدثها الظلم لدى الطبقات المحرومة والمظلومة ، كما أدركنا الى جنب ذلك غريزة الكمـال وحب البطولـة المغروسة في أعماق الانسان ، اذا أدركنا كل هذا عرفنا القيمة الايجـابية التي تمنحها هذه الدعاية العملية للمادية والقيمة السلبية لذلك السلوك العملي لدى الالهيين في التضعيف والنفور من المعسكر الالهي •

وهذا الامر غريب جدا فالواقع يقتضي أن يكون الامر على العكس• اذ انه من لوازم الايمان بالله تعـالى ومعرفتـه ان يترفـع الانسان عن الاهداف المادية ويستهدف ما وراءها مضحيا بما يملك على خلاف المادية

التي تربط الانسان بالطبع ـ بالمادة والماديات وما يرتبط بحياته الفردية الشخصية ضمن الاطار المادي للحياة فقط •

وعلاوة على هذا نجد ان التاريخ يؤكد لنا دائمـا ان الذين كانوا يقفون على مر التاريخ ضد الفراعنة والجبابرة ويدكون معاقل الشيطان هم الانبياء واتباعهم • اذ كانوا هم المحركين لقوى الايمان في الطبقـات المحرومة المستثمرة ضد الطبقات الغنية المترفة والقرآن الكريم يقول في سورة القصص :

« وَنرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الذِّينَ اسْتُضْعِفُوا في الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثينَ وَنُمكِّنَ لَهُمْ في الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَونَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ »[1].

ويقول في موضع آخر : « وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِما أَصَابَهُمْ في سَبيلِ الله وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانوا واللهُ يُحِبُّ الصَّابرِينَ. وَمَا كَانَ قَولَهُمْ إلا أَنْ قَالوا رَبَّنَا اغْفِر لَنَا ذُنوبَنَا وَإِسْرَافنَا في أَمرِنا وَثَبِّتْ أَقدَامنَا وَانصُرنا عَلَى القَومِ الْكَافِرينَ فآتاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنيا وَحُسْنَ ثَوابِ الآخرة وَالله يُحِبُّ المحْسِنِينَ »[2].

وبعد أن رأينا ان آيـات سورة القصص « تؤكد على ان الله يريد أن يمكنهم في الارض تلوح لنا آية أخرى موضحة سلوك اتباع الانبيـاء عندما يتمكنون في الارض اذ يقول تعالى في وصفهم : « الَّذينَ إِنْ

---

(١) القصص الآية ٥ ـ ٧ .
(٢) آل عمران الآية ١٤٦ ـ ١٤٩ .

مَكَّنَّاهُمْ فِي الارْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الامُورِ »[1] .

فهم يعملون على أي حال وسواء وصلوا الى الغاية المرجوة ام لا فذلك أمر تابع لسلسلة العلل والمصالح التي هي بيد الله .

كما انه ورد في آيات سورة القصص ان الله يريد أن يجعلهم أئمة وهناك آية أخرى في سورة السجدة توضح من هم الأئمة وما هي خصائصهم ؟ ! ذتقول : « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ »[2] .

ويقول القرآن في موضع آخر : « فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَموالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً »[3] . ويقول أيضا : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ »[4] .

ويعرض لنا في موضع آخر ـ هدفهم البطولي فيقول على لسانهم : « ربنا افرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » .

ولا ينحصر الامر بهذه الآيات فما أكثرها في القرآن الكريم ... ولكن هل يمكن أن تتصور حماسا فوق هذا الحماس ؟

ان القرآن حافل بآيات البعث والحماس والدفع نحو الامر بالمعروف

(١) الحج الآية ٤١ .
(٢) الم السجدة الآية ٢٤ .
(٣) النساء الآية ٩٥ .
(٤) الصف الآية ٥ .

والنهي عن المنكر فلم تراجع الالهيون عن موقع الثورة ـ والحال هذه ـ واحتله الماديون ؟

قد يكون الجواب سهلا بالنسبة للاديان الاخرى ـ غير الاسلام ـ الا ان الذي هو غريب حقا ان يترك اتباع القرآن هذه المواقع ... ولا عجب من الكنيسة ذلك لانها كانت تطعن وتشمت ـ لقرون عديدة ـ بالاسلام وبنيه وقرآنه وتنعى عليه تركه الصوامع والرهبانية وانطلاقه الى الحياة ووقوفه امام الظلم والظالمين والمتحكمين في النفوس ، وعدم عمله بقاعدة « ما لله لله وما لقيصر لقيصر ! » نعم لا عجب منها ولكن العجب كل العجب من اتباع القرآن !

اننا نعتقد ان تخليه هذا الموقع من الالهيين واحتلاله من قبل الماديين ينتميان كل الى علة مستقلة عن الاخرى .

فقد أخلي موقع البطولة وقيادة النهضة ضد الظالمين من قبل الظالمين الالهيين نتيجة سريان روح التقاعس وطلب العافية والراحة في من ادعوا لأنفسهم القيادة الدينية وبعبارة أصح فان هذه الظاهرة حدثت يوم أن تسلم القيادة أناس يتطلبون قبل كل شيء العافية والدنيا او كما تعبر النصوص أناس من أهل الدنيا بدل الانبياء وقادة الدين الحقيقيين. وهكذا ربّى أولئك المدّعون الناس غلطا على روحية تخالف تماما الروحية التي أرادها الانبياء لهم وان كان هناك شبه بين الحالتين فليس الا شبها في المنظر والمظهر لا غير .

وطبيعي ان يحول هؤلاء المفاهيم الدينية ويوجهوها وجهة تسقط عنهم التكاليف الكثيرة وتنسجم مع طلبهم للتقاعد والتقاعس والراحة . وقد حرفوا ـ عن عمد او لا عمد ـ بعض المفاهيم الدينية واستعملوها ضد الدين نفسه .

فمثلا يوجد في التشيع مبدأ معقول يؤيده القرآن والعقل وهو مفهوم (التقية) وهي عبارة عن التكتيك والتنظيم المعقولين لتحقيق

أهداف الصراع مع الباطل من جهة وحفظ القوى وتنميتها من جهة أخرى .

وطبيعي ان تكون هناك قيمة عملية لكل فرد ينتمي لجهة هادفة معينة سواء من حيث ونه فردا منتميا او من حيث امكانياته الاقتصادية والاجتماعية واذ من المهم لتلك الجهة ان تحتفظ بطاقاته في صراعها مع الجهات الاخرى . وتسعى الحد أكبر من السعي لحفظها وعدم هدرها لتستفيد منها وقت الحاجة فلا تبذر بها من دون مبرر ولا تضعف القدرات بلا دليل للحفاظ على قدرة وكفاءة عاليتين يمكن بهما تحقيق الهدف في الوقت المناسب .

فالتقية حكمة عملية في مجال الصراع وهي مشتقة من مادة وقى بمعنى حفظ ، اذ ليس من واجب المجاهد المناضل ان يحطم عدوه فقط بل من واجبه ايضا ان يحافظ على نفسه وطاقاته ، والتقية تعلمه كيف يؤثر أكبر التأثر ويتأثر بالحد الاقل من التأثر وهي تخطيط معقول حكيم في مجال الصراع .

الا اننا نجد مفهوم هذه الكلمة وقد انحرف تماما واتخذ له صفة تقوقعية بل ومعارضة لكل نوع من انواع الصراع ضد الباطل ومبررة لحالات الراحة والتكاسل لاولئك الذين عملوا على التحريف ، وعادت التقية تعني الهروب من الساحة وتسليمها للعدو فلا وظيفة للمتقي الا المناقشة والمجادلة والصراخ بعد ذلك التسليم !

هذا بالنسبة لعامل تخلية مواقع الثورة من قبل الالهيين اما عامل احتلال الماديين له فيمكن ان يقال ان تخلية الالهيين لهذا الموقع دعا الماديين لاحتلاله ولكنه غير صحيح اذ ان هناك عاملا آخر في البين .

ونحن نركز على الكنيسة باعتبارها المسؤولة تماما عن ذلك . ففي اوربا وجدنا ان الكنيسة عرضت للناس مفاهيم خرافية عن الله

والعالم الآخر والمسيح فلم تكن الافكار الحرة الواعية لتستطيع تقبلها .
وكذلك لاحظنا هزالة ما كان يعرض على الناس بعنوان انه فلسفة الهية من قبلها أي من قبل الكنيسة . الا أن ذلك لم يكن هو السبب الاعمق وانما اضافت الكنيسة الى أعمالها عنصر الوقوف الى جانب الظلم والاستبداد مما ولّد في الاذهان علاقة طبيعية بين الايمان باللهومشروعية الاستبداد من طرف وبين المادية والالحاد وحقوق الشعب في حكم نفسه والنضال في سبيل تحقيق أهدافه المشروعة من طرف آخر .

وكل هذا أوجب أن ينهض بعض المصلحين الاجتماعيين ممن لهم تعطية جماهيرية ـ فينكروا الايمان بالله وكل مفهوم يتفرع عليه ويتحولوا الى المادية في سبيل ان يحرروا انفسهم من قيود الكنيسة في طريق نضالهم الاجتماعي الطويل .

وهذا المعنى جر اتباعهم الذين كانوا مبهورين بأعمالهم ومخدوعين بها الى السير على هذا الطريق تدريجا منتظرين من المادية ان تصنع لهم المعاجز التي لم يعرفوها بعد ، بعد ان قدمت لهم المعجزة الاولى وهي ايجاد مثل هؤلاء القادة المناضلين في حين ان الواقع يقول : ان هؤلاء لم يكتسبوا قواهم من المادية وانما قويت المادية بهم فاكتسبت اعتبارا وحيثية لذلك ، وانه لم تكن علة انحراف هؤلاء نحوها هي احساسهم بميزات خاصة في المادية تبعث على النضال والعمل وانما كان ذلك من ردود فعل ضغط الاجهزة الدينية ـ كما تدعي ـ والمفاسد الفكرية والاخلاقية والاجتماعية التي اصيبت بها .

ونحن نشاهد فعلا نوعا من الارتباط المدعى بين الاشتراكية كمذهب يرتبط بالوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للمجتمع وبين

المادية هذا الارتباط حدث في اذهــان البعض من قصار النظر مع انه لا ترابط مطلقا بينهما • وفي الحقيقة فان المادية أوجدت لنفسها ــ كما مر ــ سبقا واعتبارا بارتباطها الكاذب بالاشتراكية •

ومن البديهي اننا لا نريد أن نبالغ فندعي ان الماديــة استطاعت ان تحتل كل مواقع النضال الثوري والتقدمية والبناء الحديث من الالهيين بل ان هذا المعنى بلكيته لا يصدق بأي حال من العــالم الاسلامي ••• وهذا تاريــخ النصف الثاني من القرن العشرين خير شاهد على نوعيــة النضال ضد الاستعمار في الارض الاسلاميــة •• وان وعاة الاحــداث ليتنبأون للمسلمين الواعين باحتــلال هذه المواقــع التــي هي حقهــم الطبيعي ــ واحدا بعد الآخر ــ وحتى انه ليقال ان النهضات القومية في جنوب شرق آسيا والتي أصبحت مثار اعجاب العالم لم تكن ــ خلافــا للدعاية المادية ــ لتستمد جرأتها من المادية بل من نوع من الامور المعنوية المنافية للمادية •

لكننا يجب ان لا ننكر ــ الى جنب هذا ــ ان الامــر كان كذلك الى زمن قريب وانه ما زال الماديــون يعتبرون المحتلــين الاصليين لتلك المواقع •

النتيجـة

ما هي النتيجة العملية التي يجب أن نحصل عليهـا بعد ملاحظـة العوامل السابقة وآثارها المخربة ؟

وقبل الاستنتاج نود ان نقول بأننـا لا نعتبر هذا البحث بحثـا جامعا تماما فيمكن ان تكون هناك عوامل اخرى سقطت من حسابنا كما يمكن ان نكون مخطئين في تقييمنا لدور البعض من العوامـل اذ أن من المسلّم به ان اولئك الذين يبنون التاريخ وحركته على أسس اقتصادية او غيرها يوجهـون هذه الحوادث بتوجيـه آخر وينظرون للمستقبـل نظرة اخرى .

نعم نحن وان لم نعتبر هذه الدراسة كافية لتكوين الرأي القطعـي حول عوامل الانحراف نحو المادية ونعتبر ان الموضوع يحتاج الى تحقيق أدق وأعمق ، الا اننا غير مستعدين مطلقا لتقليـد الآخرين تقليدا أعمى والتسليم بما يقولون دون نقد او تمحيص .

بعد هذا فاننا نحاول أن نعرض واقـع ما توصلنا اليه لنرى وجهة نظر اولئك الذين يعملون على نشر كلمـة « التوحيد » ويرون ان نجاة الانسانية مرهون بالايمان بالله ، وان الجنة الروحية هي أسمى ضروري من ضروريات حياة الانسان الفردية والاجتماعيـة ، وان لا أمل ببقـاء الانسانية وحضارتها بدونها اذ ستفني نفسها وحضارتها والارض التـي

تستقر عليها بيدهـا هي . فما هي وسيلـة الخـلاص ؟ وما الذي يجب عمله ؟

اذا راجعنا ما سبق ودرسنا تلك العلل عرفنا النتائج التالية :
أولا : ان علينا آن نعرض الفكر الالهي بشكل علمي معقول مبرهن صحيح فلا نعطي الله شكلا انسانيا ولا نجعل له عينا وأذنا ونعين المسافة بين عينه اليسرى وعينه اليمنى ، ولا نبحث عنـه في المختبرات او فـوق السحب او في السماوات او في قعر المحيطات ، بل نلاحظ تماما مسألـة التنزيه التي اعتمد عليها القرآن كثيرا ونجعله تعالى فوق القياس والخيال والظن ، وانما نعتقـد به مبدأ للكون وقيوما عليه ولا نجعـله يتقاسم العمـل هو والعلل الزمانية ، ونرفض كل التصورات المغلوطة حول العلم الازلي والارادة الازلية .

وخلاصة الامر : ان نقف بوجـه أي انحراف فكري في المسائـل الالهيـة . وهذا لا يمكن ــ طبعا ــ الا حينمـا تكون لدينـا مدرسة استدلالية مترابطة التصورات تكون بمستوى هذه المهمة .

والمعلومـات الاسلامية في هذا المجال غنيـة الى حد كبير جدا . وتستطيع آن تحقق ذلك بشكل رائع . وقد استطاع الفلاسفة المسلمون باستلهام من القرآن الكريـم وكلمـات الرسول الاكرم (ص) والأئمـة الاطهار (ع) ان يوجدوا مدرسة على أساس الاستدلال القوي المتين .

ولذا فاننا سوف لن تتوقع لمن له هذه المعرفـة بمثل هذه المدرسة أن يقول : بأن معنى العلة الاولى هو أن يضع الشيء بنفسه أسس وجوده أو يقول : انه لو كان كل شيء معلولا للعلة الاولى فما الذي أوجد العلة الاولى نفسها ؟ ولا يقـول ايضا : بأن مشكلة العلـة الاولى مشكلـة

لا تحل كما انه سوف يتصور ــ غلطا ــ أنه اذا قلنا بوجــود الله وجب ان يكون للزمــان ابتداء زماني ، او انه اذا أثبتنا الله نفينــا الحرية ، او يقول بتردد الامر بين الايمان بالله والحرية وامثال ذلك ٠

وهنا ننبه الى ان التاريــخ الاسلامي يحدثنــا عن ان الاشاعــرة والحنابلة أوجدوا أسلوبا قشريا جامدا هدد المعلومات الاسلامية ولكنه لم يستطع الوقوف بوجه التحرك والتقدم الحثيث للعلومات الاسلامية العميقة ٠

ومما يؤسف له أن نشاهد اليوم بعضا من الكتّاب العرب الواعين (كما يدّعى) قد وقعوا تحت تأثير الفلسفة الحسية الاوربية من جهــة وتأثير السوابق الاشعرية من جهــة أخرى فراحوا يروجون لنــوع من الجمود الفكري واللاأدرية في الالهيــات ــ وهو يعبر عن شكــل من أشكال الترابط بين المسلك الاشعري والفلسفــة الحسية ويمكــن ان نعد منهم محمد فريد وجدي ، والى حد ما سيد قطب ، ومحمد قطب ، وابو الحسن الندوي ، وقد وصل الينا ــ نحن الشيعة ــ شيء من مثل هذا التفكير ــ بشكل متفاوت ــ ٠

وقد حاول هؤلاء ان يغلقــوا باب المعــارف بعنــوان ان ما وراء الطبيعة عالم مجهول وغير معــروف للانسان وخارج عن طاقــة العقــل والتفكير ونحن غير مكلفين شرعا بورود هذا الوادي المجهول ٠ وتخيلوا ان الحد الاعلى لفهم الالهيــات ان نطالع النظــام الكوني ثم نعض على أصابعنا من الحيرة والدهشة وهذا هو الحــد الاكثر من الايمان بالله ٠ فتكفي مطالعة دورة كاملة من التاريخ الطبيعي لمعرفة كل المسائل الالهية فكتب أمثال « موريس مترلنك » تعتبر « دراسة الهية كاملة » !!

ولم يعلم هؤلاء ان مطالعة نظام الخلقة تعتبر الخطوة الاولى لا الاخيرة ! فان اقصي ما نصل اليه بهذه الخطوة هو الحد الفاصل بين الطبيعة وما وراء الطبيعة لا اكثر .

وقد ذكرنا في هوامش الجزء الخامس من كتاب (أصول الفلسفة والمذهب الواقعي) طرقا مختلفة للايمان بالله تعالى ومنها طريق الحس والعلم بمعنى اننا قيّمنا أسلوب دراسة الطبيعة وبيّنا حدوده وأثبتنا انه :

أولا : ان الباب مفتوح لتحصيل المعارف الالهية ومعارف ما وراء الطبيعة بالاسلوب العلمي البرهاني المتقن .

وثانيا : ان الناس مكلفون اسلاميا ـ او على الاقل مسموح لهم بمعرفة حقائق ما وراء الطبيعة كما يتعرفون على المعلومات التحقيقية والاستدلالية والبرهانية لا التقليدية .

وثالثا : ان طريق الحس والعلم او طريق الطبيعة طريق توصلنا الى الحد الفاصل بين الطبيعة وما وراءها . فليست توصل الانسان من الطبيعة الى الالوهية او كما يقول الفلاسفة (من الخلق الى الحق) بل تنتهي عند حدود الطبيعة بمعنى انها تثبت فقط ان للطبيعة شيئا خارجا عنها يسخرها . اما مسألة كون ذلك الخالق مخلوقا ومسخرا لغيره ام لا ؟ واذا لم يكن هناك شيء وراءه فهل هو بسيط او مركب ؟ وهل هو واحد او كثير ؟ وهل يتناهى علمه وقدرته ام لا ؟ وهل ينتهي فيضه ام لا ؟ وهل ان الانسان مجبور ام حر ؟ كل هذه التساؤلات وعشرات الاسئلة امثالها لا يمكن لطريق دراسة الطبيعة لوحده ان يجيب عنها .

ولكن هناك علم يستطيع ان يجيب على هذه الاسئلة ويوصلنا بقواعده البرهانية من (الخلق الى الحق) ويستطيع ان يمشي بنا بالحق في الحق ويطلعنا على معلومات هامة حول الله تعالى •

وعلى اي حال فان من خطوات الصراع مع المادية ان نعرض مدرسة الهية تستطيع اشباع الجوع الفكري لباحثي البشرية •

وفي الخطوة التالية علينا ان نشخص الترابط بين المسائل الالهية والمسائل الاجتماعية والسياسية ونعرف ما هي النظرات السياسية والحقوق الاجتماعية التي يسندها او يعارضها الاسلام لئلا نقع بالتالي فريسة نظرة الناس الى الايمان بالله على انه يعني الرضا بالضغط والاستبداد •

ولحسن الحظ فان التعاليم الاسلامية غنية بذلك وبشكل خارق فواجب العلماء المسلمين الواعين هو تعريف الامة الاسلامية بالمدرسة الحقوقية للاسلام من مختلف الزوايا السياسية والاقتصادية على الاخص•

اما في الخطوات التي تتبع هذه الخطوة فانا نحتاج بجد للتخلص من هذه الفوضى التبليغية وابداء النظر من قبل غير المتخصصين حول الاسلام فلا تعرض تلك الحكم الجافة السخيفة عن خطوط قشرة البطيخ او اجنحة الابل !!

كما يجب الاهتمام البالغ بمسألة البيئة الاخلاقية والاجتماعية الملائمة للمفاهيم المعنوية السامية • ولهذا دفع الاسلام اتباعه للامر بالمعروف والنهي عن المنكر • وهذه الارضية ضرورية جدا بعد ذلك للنمو الفكري للمفاهيم المعنوية العالية •

ونعتقد ايضا بالضرورة الملحة لان يقوم المطلعون على المفاهيم الاسلامية الحقة في عصرنا بعملية تعيد الحماسة من جديد وهي ركن اساسي من اركان هذه المفاهيم وهذا يحتاج الى جهاد فكري ولفظي شديد يتبعه جهاد عملي صادق واع لاهدافه المجيدة .

والسلام على من اتبع الهدى .

محتويات الكتاب

مقدمة المترجم	٥
المؤلف في سطور	٩
مقدمة المؤلف	١٣
المادية	١٥
الجذور التاريخية للفكرة	١٧
المادية في العصور الاسلامية	١٨
فطرة الانسان اهي موحدة ام مادية	٢٠
المادية في القرون الاخيرة	٢٢
تصور المفاهيم الدينية الكنسية	٢٥
التصوير الانساني لله	٢٨
وخلاصة الحديث	٣١
الله من زاوية نظر اوغست كونت	٣٢
المراحل التاريخية الثلاث لاوغست كونت	٣٧
قصور المفاهيم الفلسفية	٤٦
التوحيد والتكامل	٦٩
ازلية المادة	٨٥
الله والحرية	٨٦
عدم نضج المفاهيم الاجتماعية والسياسية	٨٩
ابداء النظر من قبل غير الاخصائيين	٩٢
العبادة او الحياة	٩٥
البيئة الاخلاقية والاجتماعية غير الملائمة	١٠١
موقع البطولة والنضال	١٠٩
النتيجة	١١٧